دكتور حامد عمار



من القدس يبدأ السلام

مكتبة الدار العربية للكتاب

من القدس يبدأ السلام

الناشـــر : **مكتبة الدار العربية للكتاب**
٢٤ ش الدكتور حسن إبراهيم
متفرع من مكرم عبيد
تليفون وفاكس : ٢٧٤١٧٢١
ص . ب : ٧٥٨٤ ـ الحى الثامن ـ مدينة نصر
رقم الإيداع : ٩٠١٤ / ٩٧
الترقيم الدولى : 3 - 015 - 293 - 977
جمع وطبع : **سوبية للطباعة والنشر**
العنوان : ٧ ـ ١٠ شارع السلام ـ أرض اللواء ـ المهندسين
تليفون : ٣٠٣١٠٤٣ ـ ٣٠٣٦٠٩٨

الطبعة الأولى : ربيع آخر ١٤١٨ هـ ـ أغسطس ١٩٩٧م .

الدكتور حامد عمار

من القدس يبدأ السلام

الناشر
مكتبة الدار العربية للكتاب

إهـــــداء

إلى أطفال الحجارة

دفاعاً عن أرض مغتصبة ،

وإعلاناً لأشواق لا تهزم ،

وتمسكاً بمقدسات لا تدنس

وإلى المثقف المناضل

أ . سعد الدين وهبة

مجسداً لنضال الأمة العربية

فى استرداد الأرض ، والحفاظ على الكرامة

مقولات

فى فلسطين وأمتها العربية

فى قرون الهمجية

علَّموها كل أنواع اللغات الأجنبية

سلبوها وجهها

سلبوها لونها

سلبوها صوتها

سلبوها زيَّها الموروثَ من أكتافِ جَد لحفيد

وغداة اعتقلوها من جديد

سألوها ما اسمك يا بنت ؟

فردت فى هدوء وروية

عربية عربية

سميح القاسم

السياسية الإسرائيلية

* إنه يمكن وضع القانون جانباً والاعتراف بما يفعله اليهود

بن جوريون

* فلنلتفت إلى معتقداتنا نحن ، حيث لا الأخلاق، ولا التقاليد اليهودية تنبذان الإرهاب، بوصفه وسيلة قتالية فى مجرى الصراع ، لذا . . فنحن بعيدون كل البعد عن تأنيب الضمير إزاء استخدامنا وسائل الإرهاب . وفى التوراة جاء : (امحقوهم عن آخرهم . أبيدوا حرثهم ونسلهم). إن إرهابنا يلعب دوراً كبيراً فى معركتنا هذه .

إنه صوت عال ، بحيث يسمعه العالم بأسره . . وكذلك أشقاؤنا التعساء خارج هذه البلاد »

إسحق شامير

صرخة الضمير العالمى

* علينا أن نمسح العار وبؤس الاضطهاد والظلم والمعاناة التى تعرض لها الشعب الفلسطينى . . إننا سنقوم بعمل رائع إذا ما استطعنا أن نساهم فى تمكين هذا الشعب من العودة إلى وطن خاص به ، بحيث يصبح بإمكانه اتخاذ قراره بنفسه ، وبناء مستقبله، ويعود إلى أن يحظى بالاحترام الذى حرم منه .

اللورد هيو كارادون

رئيس الوفد البريطانى إلى الأمم المتحدة

الذى صاغ قرار ٢٤٢ عام ١٩٦٧

محتويات الكتاب

توطئة

يجمع هذا الكتاب بين دفتيه مجموعة من المقالات التى حررتها خلال عدة سنوات من عقد التسعينيات . وقد انطلقت من جملة من الأحداث المأساوية التى تجرى على الساحة الفلسطينية فى معترك ذلك الصراع المحتدم بين الفلسطينين والأمة العربية من ناحية ، وبين إسرائيل والحركة الصهيونية وأنصارها من الناحية الأخرى . والحاصل ـ كما يدل عنوان الكتاب ـ أنها جاءت تعبيراً محموماً عما تضطرب بين المشاعر والمواقف العربية ، إزاء مجريات ذلك الصراع والقوى المتداخلة فيه بصورة سافرة أو مستترة .

وإذا كانت بعض مظاهر تلك الأحداث قد تغيرت كثيراً أو قليلاً ، لكنها ماتزال تتجلى وتتواتر وتتلاحق ـ دون توقف ـ فى صور وأشكال مختلفة ، وفى أحداث مشابهة فى المضمون والرؤية الإسرائيلية منذ نشوء الحركة الصهيونية فى القرن التاسع عشر . وتحرك تلك الأحداث القديمة والجديدة والمستمرة أيديولوجية واحدة ، مهما تغير الطلاء على وجهها ،

وتلكم هى الأيديولوجية الصهيونية الساعية إلى الاحتلال والعدوان والسيطرة على أرض العرب ومواردها ، تحت مظلة القومية اليهودية ، مستندة إلى تزييف لوقائع تاريخية حين تزعم أنها كانت مستقرة على أرض فلسطين منذ عام ١٣٥م وهى السنة التى طرد فيها الرومان معظم اليهود من سكان فلسطين . ومزيفة لتفسيرات توراتية يقع معظمها فى سياق الأساطير أو مفاهيم أقرب إلى أضغاث أحلام .

وما تزال تلك الأيديولوجية تتغلغل وتنتشر وتترسخ ، بالقوة حينا ، وبالمال حينا ، وبأساليب الكذب والمناورة والمراوغة أحياناً أخرى .

وشواهد ذلك كثيرة فيما جرى على الساحة الفلسطينية منذ مذابح دير ياسين ، وانتهاء بمسيرة التسوية السلمية التى انطلقت من مدريد ، وما تبعها من اتفاقيات . وفى اعتقادى ، وفى اعتقاد الملايين من أبناء هذه الأمة أن جوهر تلك الأيديولوجية لم يتبدل ، وأنه مهما كان مصير عملية السلام ، سوف يظل الصراع العربى الإسرائيلى صراع وجود ، لا مجرد صراع حدود طالما استمرت الأيديولجية الصهيونية متمسكة بمقوماتها العنصرية والفاشية والعسكرية والنووية لاحتلال الأرض ، والاستغلال الاقتصادى فى أى صورة للاندماج مع المنطقة العربية والتى تجلت فى الآمال الإسرائيلية فى الهيمنة ، من خلال مشروع السوق الشرق أوسطية .

أزعم ـ والحيثيات تؤيد زعمى ـ أن الأيديولوجية الصهيونية لم تتغير فى حقائقها منذ أيام تيودور هرتزل ،والتى تؤمن بأن القوة بمختلف

وسائلها فوق الحق . يقول هرتزل : (إن التآخى العام بين الناس ليس حتى حلماً جميلاً ، فالعدو شرط ضرورى لأرفع مجهودات الإنسان وأسماها ... إن الإنسان الذى يخترع مادة شديدة الانفجار يعمل لأجل السلام أكثر من ألف داعية إلى اللطف والرفق واللين) ... وهل يقول نتنياهو فى العلن والسر غير ذلك ؟ ! .

إن استعلاء الصهيونية ونظرة الصهاينة إلى العرب ، لم يغيرها ما جرى خلال سنوات من مقابلات بغير مقابلات ، ومفاوضات بغير مفاوضات جرت بين الإسرائيليين وبعض القيادات العربية فى المشرق والمغرب ، ولم يتغير اصطفاء الله لهذا الشعب المختار من نظرته إلى العرب، رغم ما وجهنا لهم من خطاب بصيغة (أبناء العم الأعزاء Dear Cousins) . وآيات الاستعلاء ظاهرة ومقتحمة لكل عين عربية ، ومهدرة لكل كرامة عربية ، لعل صفة الإذعان أهون تلك الصفات . ورغم ما ينتابنى، أو ينتاب أى قارىء ـ من الحياء ، بل والاشمئزاز ـ فإنى أورد مقولة الصهيونى فلاديمير جابوتنسكى مؤسس الحزب الإصلاحى ، فى وصفه لأهل يافا من العرب عام ١٩٦٧ (إنهم عرب لوطيون ، أبناء زنا ، مشاكسون من يافا ، حثالة فى مرفأ قذر) *. وقد يقال ـ تبريراً لهذا الفحش ـ أنه متطرف أو متهور ، كما يوجد نفس

(*) وردت هذه المقولة فى مقال لأحد الكتاب الألمان فى صحيفة (دير شبيجل (العدد ٤٨ لسنة ١٩٦٧) ، كما جاء فى أحد تقارير الأمانة العامة لجامعة الدول العربية عن (القضية الفلسطينية فى شهر) السنة الثامنة العدد ٢٣ مايو / آيار ١٩٨٦ .

التبرير لمن ارتكبوا جرائم قتل المصلين فى المسجد الأقصى ، وفى الحرم الإبراهيمى .

وهل انتهت عنصرية شعب الله المختار مع ممارسة الضغوط الأمريكية على الجمعية العمومية للأمم المتحدة بتبرئة إسرائيل مما اتخذته الأمم المتحدة فى قرارات سابقة من إدانة الصهيونية كحركة عنصرية ؟ .
إن نقاء الدم اليهودى والهوية اليهودية لا تتم إلا بإثبات انحدار الشخص من أربعة أجيال من الأمهات اليهوديات كما يؤكد الحاخامات. وأكثر من هذا ... فإن قاضياً صهيونيا أمريكيا ينادى بأن الدم اليهودى الذى يجرى فى عروق بنى إسرائيل يحمل تفوقاً معنويا وفكريا ، وعبقرية وموهبة خاصة باليهود . وتبقى فيهم حتى لو تخلوا عن الديانة اليهودية ، كما هو الحال بالنسبة إلى ماركس وسبينوزا ودزرائيلى) .

وهل نسينا مقولة مناحيم بيجين عقب توقيع معاهدة كامب ديفيد، حين ادعى أن اليهود قد أسهموا فى بناء الأهرامات فى مصر .
ومن مظاهر الاستعلاء الأسطورى الخرافى ... ما ادعاه أحد الصهانية بقوله (إن حضارة الأندلس لم تكن عربية ، وإنما يهودية ، وإن فتح الأندلس تم على أيدى اليهود ، لأن الفاتحين كانوا من البربر ، وكان البربر شعباً يهوديا) .

ورحم الله خلفاء بنى أمية فى الأندلس ، حين قامت حضارتهم على المساواة بين المسلمين والنصارى واليهود وانفتحت آفاق الحرية فى عهد

عبد الرحمن الناصر ، ليسهم الجميع فى العمران والفنون والآداب والفلسفة .

ولعل عمق هذه الأيديولوجية الاستعلائية المعششة فى الذهن الإسرائيلى ، بصور قد تتفاوت فى الدرجة لا النوع ـ هى التى تتجلى فى زعمهم بأن الرخاء فى الشرق الأوسط إنما يتحقق فى تكامله بين عناصر الثروة النفطية ، توفر الأيدى العاملة الرخيصة ، والتى سوف تحركها نحو الإنتاج الوفير العقول الإسرائيلية ، ومعارفها العلمية ، ودراياتها التكنولوجية والتنظيمية ، مما لا يتوفر عند العرب .

تلك هى (الأيديولوجية العلمية) للصهيونية ، يتضح من مبادئها ومقولاتها ، فضلاً عن ممارساتها وأخلاقياتها على أرض الواقع العربى ما أشارت إليه بعض مقالات هذا الكتاب ـ والتى يتضح منها بجلاء أن قضية الصراع العربى الإسرائيلى ، هى معركة وجود وبقاء ونماء ، وليست مجرد حدود ومواقع لضمان الأمن الإسرائيلى . هى معركة مع الصهيونية العنصرية العدوانية ، وليست مع اليهود أصحاب أول ديانة سماوية .

ومع كتابة هذه المقدمة نتذكر موقف الولايات المتحدة الامريكية حين استخدمت حق الفيتو ضد بناء مستعمرة جبل أبو غنيم شرقى القدس رغم موافقة كل اعضاء مجلس الأمن من الدول الأعضاء . كذلك تصعقنا أخبار إسرائيل بملصقات ذلك الكاريكاتور المهين لنبينا (ﷺ) ، ولقرآنه المجيد . كذلك تمتد الإهانة لنا ولإخواننا المسيحين عن طريق ذلك الكاريكاتور البشع عن السيدة مريم البتول عليها السلام .

ومقالات هذا الكتاب ليست مجالاً للاتهام بأننا أعداء السلام ، بل إننا متمسكون وساعون إليه بكل ما نملك من طاقات ، ونريده سلاماً عادلاً وشاملاً ، يسترد فيه العرب حقوقهم المشروعة فى الأرض والسيادة . ولسنا نحن ضد السامية ، فذلك اتهام قد استُهلِك وفقد مصداقيته حين يلقى فى وجه كل من يعبر عن أى انتقاد لسياسة إسرائيل العدوانية العنصرية .

أما بعد ..

لقد اعتمدنا فى ترتيب مقالات هذا الكتاب كما تم نشرها وعلى البعد التاريخى حسب ظهور تلك المقالات فى ارتباطها بما جرى من أحداث فى معترك الصراع العربى الإسرائيلى ، تنشيطاً للذاكرة . إن الذكرى تنفع المؤمنين .

القاهرة

يونيه ١٩٩٧

المقال الأول

أحزمة التبعية فى مجتمع الشعب الفلسطينى *

إن العامل الفلسطينى هو أول ما يُسْتَغْنَىٰ عنه فى حالة كساد الاقتصاد ، و آخر من يُسْتَدْعَىٰ فى حال ازدهاره .

(من تقرير المدير العام لمنظمة العمل الدولية ILO ، بتاريخ ١٩٨٢ رقم ٨٢)

الأرض .. الأرض

تفرد الاحتلال الإسرائيلى ـ من بين نظم الاستعمار عبر مسيرة التاريخ البشرى ـ فى اغتصابه للأرض والاستيلاء عليها من مالكيها ، بحيث انتزع من المواطنين الفلسطينيين نصف مساحة أرضهم تقريباً فى الضفة الغربية وقطاع غزة ، قام بنزع ملكيتها والاستيطان فيها بمختلف الحيل أساليب

(*) بحث نشر عام ١٩٨٨ تحليلاً للأوضاع الاقتصادية الاجتماعية فى الضفة والقطاع ، وفى ضوء ما تتخذه إسرائيل من إجراءات لحصار الأراضى المحتلة وحنق أوضاعها الاقتصادية المعيشية ، وقد اعتمدت فيه على بعض ما كتبه الاقتصادى العربى الشهير الدكتور يوسف الصايغ فى هذا الصدد .

العسف والجبروت . ويشتط سعار الصهاينة فى الاستيلاء على التراب الوطنى إلى الحد الذى يذهب فريق منهم إلى المناداة بنقل جميع الفلسطينيين فى الأرض المحتلة من تلك البقاع إلى حيث يشاؤون فى بقاع أخرى على ظهر هذا الكوكب . . هى السياسة الصهيونية المعروفة باسم المصطلح الإنجليزى «ترانسفير» Transfer . . يا للجبروت نقل شعب بأكمله لتخلو الساحة « لشعب الله المختار فى أرض الميعاد » .

تبعية فريدة شاذة :

وإذا كان نوع الاستعمار الإسرائيلى فريدا وشاذا فى مجال اغتصاب الأرض ، فإن ما اتخذته إسرائيل من سياسات وإجراءات لضمان تبعية الاقتصاد الوطنى الفلسطينى للاقتصاد الإسرائيلى أمر فريد وشاذ أيضا ، بمقارنته بسياسات التبعية التى نشهدها بين الدول الرأسمالية الصناعية ودول العالم الثالث ، أى بين دول المركز ودول الأطراف ، حسب تعبير المنظرين لسياسات التبعية فى عالمنا المعاصر . وعنصر الاتفاق الوحيد بين نوع التبعية للاقتصاد الإسرائيلى والتبعية للدول المصنعة هو أن اقتصاد المناطق التابعة مرهون باحتياجات النمو ، إنتاجا واستهلاكا ، بما يدعم اقتصادات الدول المهيمنة ، ويعنى ذلك أن اقتصادات الدول التابعة إنما تتحرك بصورة واعية وغير واعية فى إطار تبادل غير متكافىء مع دول المركز، بما يجعلها اقتصادا منكشفا للاختراق على أساس ما تمليه مصالح الدول المحتلة أو المهيمنة .

وفى إطار تبعيات العالم الثالث تقع الدول المهيمنة فى المركز الأوربى

لأمريكي ، أي في قارات منفصلة جغرافيا عن قارات العالم الثالث ،
ا تبعية الاقتصاد الفلسطيني كما يقول الاقتصادي العربي يوسف
صايغ ، فإنها ترتبط بدولة محتلة في داخل الأراضي المحتلة وفي الحيز
لجغرافي نفسه . . ومن ثم كانت صناعة إسرائيل لأحزمة التبعية أكثر
سرا وإحكاما ، كما كانت على الاقتصاد الفلسطيني أشد عسرا وإفقارا
. ومن المألوف كذلك أن دول المركز المهيمنة هي التي تحرص على تدفق
ستثماراتها وقروضها ومعوناتها المالية إلى الدول التابعة ، بيد أنه في حالة
سرائيل نجد أن استثماراتها في الأراضي الفلسطينية المحتلة ضئيلة لا
كاد تذكر . والواقع أن العكس كان صحيحا ، إذ تستفيد إسرائيل من
عملة الصعبة التي تأتي من تحويلات الفلسطينيين في الخارج إلى أهلهم
، الضفة الغربية وقطاع غزة وفي القدس الشرقية ، أو من غير ذلك من
صادر العربية الأخرى ، التي قدرت عام ١٩٨٥ بحوالي ٩ في المائة من
ناتج المحلي الإجمالي للأراضي المحتلة حسب أحد التقارير الأمريكية .
لد تمكنت إسرائيل من السيطرة على هذا المورد من العملة الصعبة ،
يجة لعدم سماح سلطات الاحتلال بقيام بنوك عربية ، واحتكار البنوك
لإسرائيلية في الأراضي المحتلة للتداول في المعاملات المالية ، تلقيا
إيداعًا واقتراضا .

والغريب في شذوذ التبعية في النموذج الإسرائيلي أنه لا يقتصر على
عتبار السوق العربية الفلسطينية « سوقا مغلقًا » لتصريف سلعه
منتجاته ، وهو ما تتعرض له دول العالم الثالث بصورة مماثلة ، وإن

اختلفتْ فى درجة الأسر والإغلاق ، بيد أن إسرائيل تعتدى على بعض المنتجات الفلسطينية ، وبخاصة فى صناعة الملابس التقليدية والحمضيات ، وتصدرها إلى الأسواق الخارجية وعليها بطاقة « صنع أو أنتج فى إسرائيل» ، وأليس من العجب العجاب أن يدعى الإسرائيليون أن أكلة « الطعمية من المأكولات الإسرائيلية الشعبية فى المطاعم والأسواق الخارجية » ؟! .

تدمير القطاع الزراعى

يمثل تدمير القطاع الزراعى جوانب مهما من جوانب استراتيجية التبعية واقتلاع الفلسطينى من أرضه وتحويله إلى قوة عمل بروليتارية أسيرة لسوق العمل فى إسرائيل ، لقد تناقص عدد العاملين بالزراعة باطراد من ٤٩,٢ فى المائة من قوة العمل الوطنية عام ١٩٦٩ إلى ٣٢,١ فى المائة عام ١٩٨٢ ، ثم أخذ فى الارتفاع إلى حوال ٣٨ فى المائة عام ١٩٨٦ وما بعدها ، نتيجة للانكماش الاقتصادى فى إسرائيل ذاتها .

وقد أدى ذلك إلى تناقص الإنتاج الزراعى بصورة عامة فى الأراضى المحتلة، ثم إن إسرائيل قد اتخذت من إعادة تشكيل هيكل القطاع الزراعى حزاما عنيفا لتبعيته بما يخدم حاجات السوق الإسرائيلية ،بغض النظر عن الاحتياجات المحلية . وعلى سبيل المثال . . لم تجد زراعة القمح التشجيع اللازم ، بل وُضعت قيود تحول دون التوسع فيها، هذا فى الوقت الذى تم فيه تشجيع زراعات الخضر والبطاطس وغير الحمضيات من الفواكه مما يتطلبه الاستهلاك الإسرائيلى . أضف إلى ذلك

الإجراءات التى اتبعت لمنع المزارعين الفلسطينيين من تصدير إنتاجهم من الحمضيات إلى الخارج مباشرة ، حتى لا ينافس نظيره من الإنتاج الإسرائيلى ، وعليهم أن يسلموا إنتاجهم إلى الشركات الإسرائيلية التى تدفع ثمنه بالشيكل ، الذى تتدهور قيمته نتيجة التضخم الرهيب فى إسرائيل .

التحكم فى موارد المياه

حين يتعرف الإنسان على مدى تحكم إسرائيل فى موارد المياه فى الضفة الغربية لا يسعه إلا أن يردد قول الشاعر فى انطباقه على سكانها :

كالعيس فى البيداء يقتلها الظما　　　والماء فوق ظهورها محمول

ويتضح ذلك فيما اتخذته إسرائيل من إجراءات لربط شبكة مياه الضفة بشبكة المياه الإسرائيلية ، وبذلك أحكمت السيطرة على موارد المياه للشرب والرى ، وقد عبر عن ذلك كاتب إسرائيلى فى صحيفة ذا وول ستريت جورنال The Wall Street Journal (بتاريخ ٢٣ يناير ١٩٨٥) بأنه قد « أصبح عرب الضفة الغربية مستوردين فى النهاية للماء المنقول بالأنابيب من إسرائيل » .

وترتب على هذا الربط لشبكة المياه الفلسطينية ، أن أخذت إسرائيل تستخرج من مياهها أقصى كمية ممكنة لاستنزافها كما فعلت فى آبار نفط سيناء ، وشرعت تجر إلى أراضيها ما نسبته ٩٥,٥ فى المائة من الحجم الكلى للمياه المستخرجة ، تاركة لسكان الضفة ٤,٥ فى المائة لأغراض

الرى والشرب والاحتياجات الأخرى . ويقدر بنفنستى عمدة القدس الغربية السابق فى تقريره لعام ١٩٨٦ أن شبكة المياه الفلسطينية تزود إسرائيل بما يزيد على ٤٧٥ مليون متر مكعب من المياه من مجمل الاستهلاك السنوى فى إسرائيل، والمقدر بحوالى ١٧٠٠ مليون متر مكعب ، أى أن مياه الضفة تغذى إسرائيل بحوالى ٢٩ فى المائة من استهلاكها السنوى .

وفى هذا الصدد يشير أحد تقارير الأمم المتحدة إلى ما اتخذته إسرائيل من تدابير صارمة لتحديد استهلاك المياه بالنسبة للمواطنين ، إذ حددت هذا الاستهلاك « بحيث لا يزيد على المستوى الأقصى الذى استخدم عام ١٩٦٧ ، ومثل هذا التعسف لا يأخذ فى الحسبان ـ بل ولا يعنيه أن يأخذ ـ ازدياد عدد السكان على أقل الاعتبارات فى استهلاك المياه . هذا فى الوقت الذى تزود فيه جميع مساكن المستعمرات الإسرائيلية المحتلة بالمياه قبل أن يطرق بابها أى يهودى ، ويزداد التراب الفلسطينى جفافا حين تم تقييد حفر الأبار الرى إلى حد كبير، مع ضرورة الحصول على التصريح اللازم لذلك . الماء الفلسطينى مستباح للإسرائيلى الذى يستهلك حوالى ٩٠ مترا مكعبا سنويا ، فى حين أن استهلاك الفرد فى أوربا الغربية لا يزيد على ٨٣ مترا مكعبا سنويا . . وللفلسطينى قطرات شحيحة !! .

وهل بعد ذلك يرجى أن تزدهر الزراعة ، أو يستقر المواطنون على

أرضهم . . وأى حياة يمكن أن تنتعش مع تقنين الماء إلى هذا الحد الضئيل ، ولنتذكر قوله تعالى : «وجعلنا من الماء كل شيء حى» ، وأستأذنك أيها القارىء الكريم حين أتذكر بيت شعر مشهورًا لشوقى :

حـــرام علـى بلابلـــه الــــدوح   حلال للطير مـن كـل جنـــس !!

تجميد النشاط الصناعى

لم يتطور النشاط الصناعى فى الأراضى المحتلة منذ عام ١٩٦٧ ، سواء فى نوعية الصناعات ، أمْ حجم المؤسسات الصناعية ، أمْ فى التكنولوجيا المستخدمة ، فمازالت الصناعة مقتصرة على الصناعات التقليدية ، مثل صناعات الصابون والجلود والملابس وعصر الزيوت والسجائر ومواد البناء والبلاستيك ومقالع الحجارة ، وهى نفس الصناعات التى كانت سائدة قبل الاحتلال . ومن مؤشرات الجمود الصناعى فى الأراضى المحتلة : انخفاض نسبة مساهمة القطاع الصناعى فى الإنتاج المحلى الإجمالى من ٩ فى المائة عام ١٩٦٨ إلى حوالى ٧ فى المائة عام ١٩٨٦ .

وبقى عدد العمل الصناعيين ثابتا تقريبا خلال السنوات السبع الماضية ، وبلغت نسبة المنشآت الصناعية التى تشغل مابين ١ , ٧ من العمال ـ وذلك حسب الإحصاءات الإسرائيلية ـ حوالى ٧ , ٩٠ فى المائة من مجموع المنشآت الصناعية ، بينما لم يزد عدد المنشآت التى يعمل فيها ٢٠ عاملا فأكثر على ٦ , ٢ فى المائة . وفى الوقت نفسه قامت إسرائيل

بإنشاء ستة مجمعات صناعية كبرى فى داخل المستعمرات بالضفة الغربية تعمل بتكنولوجيات متطورة ، والمستهدف أن يتم إنشاء سبعة مجمعات صناعية أخرى مع حلول عام ٢٠١٠ . كذلك تستغل المؤسسات الإسرائيلية رخص الأيدى العاملة الفلسطينية ، فتصدر للأراضى المحتلة سلعا غير تامة الصنع ليتم تصنيعها النهائى فى المصانع الفلسطينية على أساس عقود مقاولة من الباطن ، ليتم تصديرها مرة أخرى إلى إسرائيل التى تعيد تصديرها إلى الخارج بالعملة الصعبة .

تبعية الكهرباء :

لم يكن نصيب الكهرباء بأسعد حالا من مصير الماء ، فمنذ عام ١٩٧٦ شرعت سلطات الاحتلال فى ربط شبكة الضفة الغربية مع شركة الكهرباء الإسرائيلية ، رغم الاحتجاج والتقاضى من جانب السلطات الوطنية الفلسطينية ، وتتوالى الأنباء عن إغلاق شركة كهرباء القدس العربية ، كذلك عمدت إسرائيل إلى رفض كل الطلبات التى تقدمت بها الهيئات المحلية الفلسطينية لإنشاء شركات كهرباء جديدة، أو حتى استيراد مولدات ديزل جديدة .

وقد ترتب على هذا الربط بين الشبكتين السيطرة على مقدرات الطاقة الكهربائية واستغلالها لصالح إسرائيل ذاتها أو لصالح المجتمعات الضناعية فى المستعمرات الاسرائيلية بالضفة الغربية . وهكذا يضيق الخناق على الصناعات الوطنية وتتوافر الطاقة للمستعمرات ومجمعاتها حتى يغدو التصنيع فى الأراضى المحتلة « يهوديا لا عربيا» حسب استراتيجية التبعية والإدماج للاقتصاد الوطنى .

السوق الأسيرة :

كذلك أحكم الاحتلال الإسرائيلى أحزمة التبعية فى قطاع التبادل التجارى بين إسرائيل والأراضى المحتلة إلى درجة أنها أصبحت أسيرة وشبه مغلقة على السلع والمنتجات الإسرائيلية ، لقد وفرت الضفة والقطاع سوقا رائجة للصادرات من إسرائيل التى تقدر بحوالى ٩٠ فى المائة من جملة واردات السوق الفلسطينية . والغالبية العظمى لهذه الواردات من السلع الصناعية ، وفى الجانب الآخر لا تمثل صادرات الأراضى المحتلة سوى حجم محدود من السلع كمواد البناء والصناعات الجلدية والصناعات التقليدية . وتظهر الإحصاءات الحجم الضئيل للمنتجات الزراعية المصدرة إلى إسرائيل خشية منافستها للمنتجات الزراعية الإسرائيلية ، أضف إلى هذا ما تضعه إسرائيل من قيود على تصدير المنتجات الوطنية إلى أسواق أخرى .

وهكذا يظل الميزان التجارى لصالح إسرائيل بصورة مطردة ، متحكمة فيها يستورد وفيها يصدر ، ومن ثم تغدو سوق الأراضى المحتلة التى يتجاوز عدد سكانها أكثر من مليون ونصف سوقا محتكرة للمنتجات الإسرائيلية ، وهذا حزام آخر من أحزمة التبعية العنيفة التى تحقق من ورائها سلطات الاحتلال إفقار الفلسطينيين والسيطرة على مقدراتهم .

العمل الأسود :

هكذا جرى الاصطلاح على تسمية أنواع الأعمال التى يقوم بها العمال

فى المجالات والظروف التى تماثل ما يضطر العمال الفلسطينيون إلى القيام به فى داخل إسرائيل ، والحديث عن سواد هذا العمل يطول . ونكتفى هنا بالإشارة إلى إغراء السلطات والشركات الإسرائيلية للفلسطينيين للعمل فى إسرائيل ، فأجورهم مهما ارتفعت تظل أرخص من أجر العامل الإسرائيلى، بحيث تصل إلى النصف فى كثير من الحالات ، ومبررا على أساس تميز العامل الإسرائيلى فى الإنتاجية والإنجاز . ويشتغل حوالى ٥٠ فى المائة من الفلسطينيين العاملين فى إسرائيل فى قطاع البناء والتشييد ، ويمثلون حوالى ٣٧ فى المائة من قوة العمل الإسرائيلية فى هذا القطاع ، كما يعمل فى قطاع الزراعة حوالى ١٦ فى المائة والبقية فى قطاعات أخرى .

ونظرا لظروف الاقتصاد المحلى ، فقد اضطرت أعداد متزايدة من الفلسطينيين للعمل فى إسرائيل ، إذ ارتفع عددهم من ٢١ مليونا عام ١٩٧٠ إلى ٩٥ مليونا عام ١٩٨٦ ، ويعمل هؤلاء على أساس تراخيص عمل قصيرة الأجل تتراوح بين ٤ ـ ٦ أشهر، وتتجدد التراخيص كل مرة إذا تطلب العمل ذلك . والواقع أن استمرار منح التراخيص إنما يعتمد على تقلبات الاقتصاد الإسرائيلى ، وعلى حد تعبير أحد تقارير منظمة العمل الدولية (١٩٨٥) . . يصبح الفلسطينيون « أول من يستغنى عنهم فى فترات الكساد ، وآخر من يوظف فى فترات الانتعاش الاقتصادى » اللهم إلا فى العمل الأسود الشاق وغير الصحى ، الذى لا يقبل الإسرائيلى على الاشتغال به .

أضف إلى هذا كله أن قوانين العمل الإسرائيلية لا تسمح لعمال الفلسطينيين بالإقامة والمبيت فى إسرائيل إلا بإذن خاص ، وتقدر نسبة من قضى عليهم بالغدو والرواح يوميا بين الأراضى المحتلة وإسرائيل بحوالى ٨٠ فى المائة من الفلسطينيين المشتغلين فى إسرائيل ، ناهيك عن معاناة السفر ومضايقات مراكز التفتيش أثناء الرحلة والخلاف على من يتحمل نفقة المواصلات .

ولا يتسع المجال هنا لما يتعرض له العمال الفلسطينيون من استغلال ، سواء فى تدنى أجورهم ، أمْ حرمانهم من التأمينات الاجتماعية أمْ فرص الترقى ، أمْ فى قدر معقول من الطمأنينة فى العمل ، إلى جانب الارتفاع المتزايد فى معدل البطالة ، وخاصة بين خريجى الجامعات فى السنوات الأخيرة . ومن « النمر » الإسرائيلية المألوفة فى السياسات الاستعمارية تلك التفرقة فى مجال العمل داخل إسرائيل بين العمال العرب من الجولان وبين العمال العرب من الضفة الغربية وقطاع غزة ، فالفريق الأول مشمول بالتأمين ضد البطالة ، بينما الفريق الثانى محروم منها .

تلك هى بعض أحزمة التبعية التى طوقت بها إسرائيل حرية الحركة للاقتصاد الفلسطينى ، التى سعت من ورائها إلى « خلق واقع متقدم مطرد من الضم والزحف » على الأراضى الفلسطينية ، حسب تعبير وزير الاستيعاب الإسرائيلى الأسبق ، ويبقى الحديث عن أحوال البشر من المواطنين وهم يعانون بطش الاحتلال وسوء المعيشة .

وترسم هذه كذلك صورا قاتمة فى سجل الاحتلال الإسرائيلى . . أبعد هذا كله يسأل بعض الأقوام عن كيف ولماذا انتفض الفلسطينيون يتحدون الوجه القبيح لهذا الاحتلال الغاصب المهين ؟ !

أحوال البشر فى الأراضى الفلسطينية المحتلة

الزعم الإسرائيلى :

تدعى إسرائيل أن أحوال البشر فى الأراضى المحتلة لم تكن تنعم بما نعمت به تحت مظلة الاحتلال ، وكثيرا ما يسوق ممثلوها فى المؤتمرات الدولية أرقاما مغلوطة القراءة للدلالة على ذلك ، وأذكر من خبرة شخصية على سبيل المثال ما أدلت به رئيسة وفد إسرائيل فى المؤتمر الدولى للمرأة الذى نظمته الأمم المتحدة فى كوبنهاجن بالدانمارك ، وكنت ممثلا للجنة الاقتصادية لغربى آسيا التابعة للأمم المتحدة فى ذلك الحين (١٩٨٠) ، فذكرت تلك السيدة الإسرائيلية أن أحوال المرأة الفلسطينية على خير ما يرام، وساقت مؤشرات إحصائية لنمو معدلات الاستهلاك واقتناء السلع الكهربائية ، وتزايد فرص التعليم للبنات ، مقارنة ذلك بما كان عليه الحال قبل الاحتلال ، أى منذ ثلاثة عشر عاما مضت

ولقد استثار هذا التدليل الاحصائى المجتزأ من ظروفه الأخرى عضو الوفد المصرى فى تلك اللجنة ، فبادرت للتعليق بقولها : « إذا كان الاحتلال العسكرى يؤدى إلى تحسين أوضاع المرأة ، فعلى نساء العالم إذن أن يطالبن بالتوسع فى صور الاحتلال لتطوير أوضاعهن المعيشية» ،

وكانت تلك السيدة الفاضلة تعكس ضمير مصر العربية ، رغم ما أصاب العلاقات المصرية الفلسطينية من توتر فى ذلك الوقت على إثر اتفاقية كامب ديفيد ، وتحية تقدير للمرة الثانية أبعثها للسيدة مرفت التلاوى صاحبة التعليق ، وسفيرة مصر الحالية فى النمسا .

وعند الحديث عن الأحوال الاجتماعية المعيشية للمواطنين فى الأراضى المحتلة نود أن نذكر مرة أخرى بتلك الأحلام والأساطير الصهيونية التى لاتعترف بوجود شىء اسمه الشعب الفلسطينى ، وإن اعترفت بوجوده فلابد من تفريغ الأرض منه ، وإن أمكن نقله بكامله إلى بلاد أخرى ، بل والعمل على قتله وإبادته . ومن المنطقى فى مثل هذا التصور الأسطورى أن يسعى الاحتلال الإسرائيلى بكل الذرائع إلى امتهان المواطنين كما يسعى إلى اغتصاب الأرض ، ومن ثم كانت عقدة العدد وحجم السكان الفلسطينيين ماثلة أمام الاستراتيجية الاستيطانية الصهيونية ، وما ارتبط بها من اتخاذ مختلف التدابير والضغوط السياسية والإغراءات المادية والدعاوى الدينية فى مناداة اليهود للهجرة إلى «أرض الأجداد » ، والتهجير القسرى المباشر وغير المباشر لطرد العرب من أرضهم أو تشجيعهم على الذهاب إلى أقطار أخرى .

انتصار الديمغرافيا الفلسطينية :

تشير الإحصاءات إلى أن عدد سكان الأراضى المحتلة عام ١٩٦٧ بلغ مليونا و٣٧٥ ألف نسمة . وقد شهدت الفترة فى أعقاب الاحتلال نزوح ما يقدر بحوالى ٤٧٥ ألفا من الفلسطينيين مع أواخر عام ١٩٦٨ ،

أضف إلى هذا . . هجرة آلاف من الفلسطينيين إلى الخارج ، وخاصة إلى الدول النفطية بحثا عن عمل ، لكن خصوبة الشعب الفلسطينى فى الأراضى المحتلة قد أدت إلى أن يتجاوز عدد السكان حاليا ما كان عليه قبل الاحتلال ، إذ بلغ العدد الإجمالى مليونا و ٥٢٠ ألفا ، منهم فى الضفة الغربية حوالى ٩٧٥ ألفا ، وحوالى ٥٤٥ ألفا فى قطاع غزه ، بخلاف سكان القدس الشرقية ، ويمثل مجموع سكان الأراضى المحتلة حوالى ٣٠ فى المائة من المجموع الكلى للشعب الفلسطينى ، الذى يقدر عدده بحوالى ٥ ملايين نسمة .

إن مما يؤرق إسرائيل ويزعجها الزيادة المطردة فى السكان الفلسطينيين، حيث بلغ معدل النمو الطبيعى للسكان حوالى ٣٥ فى الألف فى السنوات الأخيرة ، بينما لم يتجاوز ٢٠ فى الألف عام ١٩٦٨ ، وبهذا يقدر أن يصل عدد الفلسطينيين إلى حوالى مليونين مع عام ٢٠٠٠ . وإذا كان عدد سكان دولة إسرائيل يبلغ حاليا ما يزيد قليلا على ٤ ملايين (باستثناء الجولان والقدس الشرقية) ، وأن الزيادة الطبيعية للسكان اليهود تقدر بحوالى ١٧ فى الألف ، فإن التوقعات السكانية تشير إلى أن نسبة السكان اليهود فى إسرائيل بالنسبة لسكان العرب فى الأراضى الفلسطينية المحتلة سوف تنخفض من ٦٣ فى المائة عام ١٩٨٤ إلى حوالى ٥٨ فى المائة عام ٢٠٠٠ ، ثم إلى حوالى ٥٥ فى المائة عام ٢٠٠٥ . وهكذا يصبح مجرد حجم البشر فى الأراضى المحتلة مصدرا للرعب الإسرائيلى ، وهاجسا يدعو إلى مناداة المتطرفين من الصهاينة إلى

التخلص من مخاطر هذا الحجم بأى شكل من الأشكال ، لكن الواقع يشير إلى أن الديموغرافيا هى فى صالح الانتصار الفلسطينى لاسترداد حقوقه المشروعة .

المقال الثانى

فاشية ، لا مجرد عنصرية *

هكذا قالت لى رئيسة وفد الاتحاد السوفيتى عن الصورة الأيديولوجية لإسرائيل عندما شاءت الأقدار أن أكون رئيساً لوفد اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغربى آسيا ، التابعة للأمم المتحدة (والمعروفة اختصار بحروفها اسكوا) ، وكان ذلك فى المؤتمر العالمى لعقد الأمم المتحدة للمرأة فى كوبنهاجن عام ١٩٨٠ . وكانت قاعات المؤتمر إذ ذاك تردد أصداء ذلك الخلاف المحتدم بين دول عدم الانحياز ، وما عرف بدول الكتلة الاشتراكية إذ ذاك من طرف ، وبين الولايات المتحدة ودول أوربا الغربية من الطرف الآخر .

ومن المصادفات الطيبة أن رئيس وفد الكويت حينئذ كان يقود حملة الدول العربية بالتعاون مع رئيسة وفد منظمة التحرير الفلسطينية فى حث الوفود المشاركة على تبنى القرار الخاص بالصهيونية ، ومساواتها بالعنصرية

(*) مقال نشر أواخر عام ١٩٩١ بمناسبة قرار الجمعية العمومية للأمم المتحدة عام ١٩٩١ بإلغاء قراراتها السابقة بمساواة الصهيونية بالعنصرية .

والتمييز العنصرى حسب قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم ٣٣٧٩ لسنة ١٩٧٥ . والمساواة بين الصهيونية والعنصرية تجىء فى ديباجة قرارات المؤتمر على أنها من بين مختلف المعوقات لتحرير المرأة وتطوير أوضاعها ، ومقترنة بمعوقات أخرى، هى: الاستعمار، والاستعمار الجديد، والإمبريالية، باعتبارها أطراً سياسية وأيديولوجية تعمل على استغلال الإنسان ، رجلاً كان أم امرأة ، وتحول دون إطلاق طاقاته وتوفير مقومات العمل المنتج والمجزى فى مسيرة التنمية المستقلة . ولقد تميز رئيس وفد الكويت بنشاط دافق فى حواراته مع رؤساء / رئيسات الوفود فى كواليس المؤتمر ، بل كان يذكّر بعضها ـ عرضاً وقصداً ـ بما تقدم الدول العربية الخليجية من عون لوفود بعض الأقطار المترددة من دول العالم الثالث .

ومن تقلب الأيام أيضا أن الذى عرض الاقتراح للتصويت بالنداء الجهرى ـ وليس بالاقتراح السرى ـ رئيس وفد السنغال الذى وافقت على اختياره مجموعة دول عدم الانحياز، بما فيها الدول العربية والإسلامية . وقد تصدى لتقديم الاقتراح وشرح مبرراته باقتدار وبلغة فرنسية بليغة . وجاء التصويت ـ بأغلبية أكثر من ثلثى الأعضاء ـ بالإبقاء على نص مساواة الصهيونية بالعنصرية ، وبنفس الصياغة التى اعتمدها المؤتمر العالمى الأولى للمرأة فى المكسيك عام ١٩٧٥ . وقد تم ذلك وسط مظاهر الابتهاج بين الدول المؤيدة للقرار ، فى الوقت الذى كانت رئيسة وفد الولايات المتحدة (الذى تجاوز عدده ٤٠ مشاركاً) تهدد المؤتمر فى

تعليقها على القرار بأن دولتها سوف تقلص مساعداتها لبرامج المرأة التى تقوم بها المنظمة الدولية . وفى خارج أسوار المؤتمر كانت طائفة من صهاينة الدانيمارك تتظاهر ، مطالبة بتسليمها بعض أعضاء الوفد الفلسطينى لمحاكمتهم على أنهم إرهابيون .

ومما ينبغى تسجيله بالاعتزاز أن وفد مصر ، وقد كان فى مرحلة أبشع صور المقاطعة من الدول العربية الأخرى ـ بعد زيارة السادات للقدس ـ وإبرام معاهدة الصلح مع إسرائيل ـ قد صوت ، برئاسة الدكتورة عائشة راتب سفيرة مصر فى الدانيمارك إذ ذاك ـ إلى جانب قرار المساواة بين الصهيونية والعنصرية . وتجلى الضمير المصرى ومسئوليته فى القضية الفلسطينية فى مواجهة السيدة الفاضلة ميرفت التلاوى ـ سفيرتنا الحالية فى اليابان ـ لمزاعم رئيسة الوفد الإسرائيلى فى إحدى اللجان . فقد ادعت الإسرائيلية أن النساء فى الأرض المحتلة فى أحسن حال : تعليما وصحة وتوفراً للأجهزة الإلكترونية فى بيوتهن ، ومن ثم فإن مستوى معيشتهن أفضل من مستوى معيشة معظم النساء العرب فى الدول العربية . وفى دبلوماسية رزينة ومنطق مفحم ، جاء رد السيدة المصرية العربية لتقول : إذا سلمنا بأن الاحتلال يؤدى إلى رفع مستوى معيشة المرأة وتحريرها من الاستغلال ، فلنطالب نساء العالم بالمناداة بأن حى على الاحتلال ، وإذا كانت الاحتياجات المادية والأجهزة الكهربائية هى أقصى ما تطلبه المرأة ، فعلينا أن نمحو الحرية وتقرير المصير من وثائق الأمم المتحدة .

وفى المؤتمر العالمى الثالث لتقييم عقد الأمم المتحدة المرأة تحت شعار

المساواة والتنمية والسلام ، والمنعقد فى نيروبى ١٩٨٤ ، برزت من جديد مسألة مساواة الصهيونية بالعنصرية . . لكن هذه المرة كان وفد الولايات المتحدة الأمريكية مصمماً على عدم إيرادها فى التقرير الختامى للمؤتمر، مهما كلف ذلك، وكان هذا واضحاً من أول يوم من أيام المؤتمر ، بل وكان ذلك معروفاً حتى قبل انعقاد المؤتمر بشهور ... فقد قامت باتصالات واسعة ومكثفة ومهددة بأن نجاح المؤتمر أو فشله إنما يعتمد على هذه المسألة، وأن غيرها من المسائل لا يعنيها كثيرا .

وقد تكهرب جو المؤتمر طيلة مدة انعقاده ، وكان من الممكن أن تظل الديباجة كما كانت فى مؤتمرى المكسيك وكوبنهاجن ، لكن تكتل الدول الأوربية وإعلانها بأنها سوف تنسحب من المؤتمر ، وبأنها لن توافق على أى تقرير يتضمن مساواة الصهيونية بالعنصرية، جاء ترديداً للموقف الأمريكى . واستمر الوفد الأمريكى فى تهديداته بالانسحاب وإفشال المؤتمر حتى آخر ساعاته . ومن الحق أن يقال إن وفود الدول العربية كلها ـ رغم ما كان بين بعضها من قطيعة ـ كانت متفقة على مساندة ما يتخذه وفد منظمة التحرير الفلسطينية من قرار . واشتد الضغط على الوفد الفلسطينى ، وحملوه مسئولية إفشال المؤتمر ، وبخاصة مؤتمراً ينعقد فى إحدى الدول الأفريقية .

ويشتدا الهرج والمرج ، وتتزايد الحركة بعد أن وافق المؤتمر على كل مقرراته وعلى تقريره الختامى ، ولم يبق إلا تلك الفقرة ، والساعة الخامسة صباحاً، والمؤتمر ما يزال منعقداً . وأخيراً لم يجد وفد فلسطين مخرجاً إلا أن

يقبل بصياغة(وغير ذلك من صور الاستغلال) وأكد الدكتور الطرزى أن الوفود العربية ووفد فلسطين ما تزال ترى فى الصهيونية شكلاً من أشكال العنصرية ، لكنه رغبة منه فى نجاح المؤتمر، فإنه قبل بالصورة المقترحة ... وصفق المؤتمر قياماً لهذا الموقف ، شاكرين للمنظمة تفهمها ومرونتها وسداد رأيها ، كما عبر عن ذلك عدد من الوفود ، وكانت الساعة السابعة صباحاً ، وانفض المؤتمر على هذا النحو .

أسوق تلك المشاهد من أحداث الأمم المتحدة ، لأقول: ماذا جرى حتى تمتنع سبع دول عربية عن التصويت ضد إلغاء قرار مساواة الصهيونية بالعنصرية فى اجتماع الجمعية العمومية للأمم المتحدة؟ . دلونا على بادرة واحدة ـ أو حتى نصف بادرة ـ قامت بها إسرائيل ، لكى توفر مناخاً ملائماً لمسيرة مفاوضات السلام ، بل العكس صحيح على طول الخط . ودلونا على موقف إيجابى نحو تحقيق السلام الشامل والعادل من قبل الولايات المتحدة الأمريكية أكثر من عبارات تقليدية نسمعها منذ أكثر من عشرين عاماً من أن إقامة المستوطنات تمثل عقبة فى طريق السلام ، أو أنها تدعو إسرائيل إلى ضبط النفس ؟ ولم نسمع أنها نددت بأى عمل من الأعمال العدوانية لإسرائيل ، بل كانت دائما تمارس حق الفيتو ضد أى إدانة لإسرائيل ، مبررة ذلك بأن قرارات مُجلس الأمن غير متوازنة. دلونا على جريمة من الجرائم الفاشية لم ترتكبها إسرائيل فى حق الشعب الفلسطينى ، وكذلك السورى واللبنانى ، إذا نسينا بحر البقر؟ وها هى الولايات المتحدة تعبىء دول العالم لإلغاء قرار الجمعية العمومية للأمم المتحدة بمساواة الصهيونية بالعنصرية بعد أن مضى على

هذا القرار ما يزيد عن ١٦ سنة . وحين نتحدث عن عنصرية إسرائيل، إنما نعنى بذلك معاملتها للعرب الفلسطينين فى الأرض المحتلة ، بل وللعرب فى دولة إسرائيل ذاتها ، وهى معاملة لا تخضع لأى اعتبارات إنسانية أو قوانين دولية . لم تتغير صور البشاعة والظلم والاضطهاد والتقتيل والطرد والسجن لعرب فلسطين منذ الاحتلال ، بل إنها لتزداد بشاعة يوماً بعد يوم ، وحتى مع بداية ما يسمى بمفاوضات السلام . . ماذا تغير حتى تضغط الولايات المتحدة على المجتمع الدولى لإلغاء قراره الذى أصدره عام ١٩٧٥؟ إن المسألة ليست مجرد عنصرية الصهيونية فحسب ، وإنما احتلالها ومعاملتها الفاشية للشعب الفلسطينى، ومعه سكان الأراضى المحتلة فى الجولان ولبنان والأردن .

لكن الداهية الدهياء فى مأساة تعديل قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة، هو ما حدث من انقسام الصف فى تصويت الدول العربية كما هو معروف ... إلغاء القرار ليس هو انتصار لإسرائيل ، وإنما انتصارها الحقيقى فى تحقيق استمرار التشرذم العربى، فذلك ضمان لفرض استمرار احتلالها، وفرض سيطرتها على المنطقة العربية سياسة واقتصاداً وتأديبا وحراسة . لن يتحقق تحرير الأرض وإقرار السلام العادل والشامل الذى نأمله إلا بأبسط المطالب، المتمثل فى وحدة الموقف العربى .

المقال الثالث

قرار دولى سيىء السمعة *

بعث لى صديق مقيم فى نيويورك بصورة رسمية من قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة فى دورتها السادسة والأربعين رقم . A/C.2/46/L. 87 بتاريخ ٢ أكتوبر ١٩٩١ ، عنوانه: الأنشطة التنفيذية للتنمية. ومقدم من الجزائر والصين وجزر القمر وإندونيسيا ومدغشقر وماليزيا وإحدى الدول العربية . وجاء فى تعليق الصديق عليه أن القرارات الدولية سيئة السمعة لم تقتصر على ما يمليه جبروت الدول الكبرى فى نطاق مجلس الأمن ، بل امتدت إلى مقترحات الدول النامية ذاتها فى ساحة الجمعية العامة لتلك المنظمة الدولية. والواقع أن القرار يمثل تناقضا عجيبا غريبا لمواثيق الأمم المتحدة وإعلاناتها، وإستراتيجياتها ، وخطابها الرسمى المعلن فى مختلف الأحداث والمناسبات.

(*) مقال نشر أوائل عام ١٩٩٢ بمناسبة تضمين مؤشرات لحقوق الشعوب وتقرير المصير ، ومن بينها الشعب الفلسطينى فى تقرير التنمية البشرية ومؤشراتها، والذى يصدره برنامج الأمم المتحدة الإنمائى فى نيويورك .

يتعلق القرار سيىء السمعة بحقوق الإنسان، وبحاجاته الجوهرية غير القابلة للتصرف أو المساومة حسب المصطلحات الدولية. والغريب أن ديباجة هذا القرار تستند إلى سبعة من قرارات الجمعية العامة، الخاصة بمبادىء الأمم المتحدة فى التنمية والتعاون الفنى، وفى العقد الرابع لاستراتيجية الأمم المتحدة للتنمية. كذلك تشير الديباجة فى الوقت ذاته إلى التزام تلك المنظمة بتشجيع السعى لاحترام حقوق الإنسان وحرياته الأساسية، وبأهمية التنمية الاقتصادية والاجتماعية للرفاهية والرخاء الإنسانى.

وليس فى هذه الديباجة ما يدعو إلى الاعتراض أو إلى التناقض مع ما نعرف من مواثيق الأمم المتحدة وشرعة حقوق الإنسان، وليس فيها كذلك ما يدعو إلى وصم القرار بأنه سيىء السمعة لكن المشكلة تبدأ فى إظهار وجهها القبيح ومقصدها الشائن حين تبدأ فى الإشارة إلى وثيقة هى فى تقديرى من أروع الوثائق التى يصدرها برنامج الأمم المتحدة الإنمائى (undp) بعنوان (تقرير التنمية البشرية) والذى تقوم مؤسسة الأهرام بترجمته إلى العربية، وقد ظهر منه حتى الآن التقرير السنوى لكل من عامى ١٩٩٠ ، ١٩٩١(*). وسوف نتعرض للعلامة الفارقة والمميزة لهذا التقرير عن غيره من تقارير المنظمات الدولية الأخرى .

فماذا ارتكب هذا التقرير من خطيئة تستحق الكفارة، من خلال قرار تتقدم به دول نامية ست ، من بينها دولتان من وطننا العربى ؟

(*)ظهر قبل طباعة هذا الكتاب (تقرير التنمية البشرية لعام ١٩٩٧) .

الخطيئة كما يشير القرار تتلخص فى أن تقرير ١٩٩١ أدخل ضمن معايير التنمية البشرية التى تؤشر على حالتها رقما قياسيا للحرية . ويرى هذا القرار أن مثل هذا المؤشر يثير خلافات كثيرة بين الدول الأعضاء فى المنظمة. هذا فضلا عن أن التعرض لقضايا الحرية ليس اختصاص برنامج الأمم المتحدة الانمائى ، وأن معالجته إنما تقع فى اختصاص لجنة حقوق الإنسان ومركز حقوق الإنسان فى المنظمة، ومن ثم فإن ولوج البرنامج فى أمور غيره من مؤسسات الأمم المتحدة يصرفه عن طبيعة عمله وأهدافه ومبادئه .

ويزعم القرار أن خطيئة التقرير تتمثل فى تأكيده على أن التنمية البشرية لا تكتمل مقوماتها وعناصرها بدون توافر مقومات الحرية الإنسانية وعناصرها . والواقع أنه يقوم بتفصيل كثير من عناصر الحرية الإنسانية كما وردت فى الإعلان العالمى لحقوق الإنسان وفى ميثاق الأمم المتحدة للحقوق المدنية والسياسية، والحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية . ومن أهم تلك العناصر: الحق فى الحياة، وفى التنقل والحركة، وفى أمن الفرد من الاعتداء عليه، والمساواة أمام القانون ، وحرية التجمع والتفكير ، والعقيدة الدينية، والرأى، وفى حق العمل واختيار نوعه ، والتمتع بمستوى معيشى لائق بها فى ذلك الكفاية من الغذاء والملبس والسكن والتعليم، فضلا عن حق المشاركة فى الحياة العامة. ويذهب التقرير فى تصنيفه إلى بلورة بعدين مترابطين فى مفهوم الحرية، هما البعد السلبى الذى يعنى التحرر من حدود وقيود، كالتحرر من الخوف، ومن

الخضوع لنظام حكم تعسفى، ومن السجن ، أو القبض على الفرد دون محاكمة، ومن الاعتداء على الحياة والممتلكات. ويعنى البعد الإيجابى : الحرية فى ممارسة شئون الحياة، كالإسهام فى صناعة القرار، وفى تكوين أحزاب للمعارضة وفى تأسيس النقابات العمالية والمهنية .

ويؤكد التقرير وجود ارتباط مرتفع بين حالة التنمية البشرية للسكان، وبين تمتعهم بالحقوق والحريات الإنسانية . وإذا كان التقرير لا يقطع بعلاقة سببية بين التنمية البشرية والحريات الإنسانية إلا أنه يرجح أن يكون الاستمتاع بالحريات من العوامل المؤدية إلى تفجير الطاقات الخلاقة للبشر، وإلى معدلات عالية من التنمية والتقدم. كذلك يمكن القول بأن الاستثمار الفعال فى البشر سوف يؤدى بهم ـ على المدى القريب أو البعيد ـ إلى تملك نصيب من القدرة والثقة بالنفس، مما يمكنهم من خلخلة القبضة العاتية لسلطة الحكم الاستبدادى ، ومن ثم التمتع بزيادة مطردة فى حرياتهم السياسية الشخصية .

ومما تتوجب الإشارة إليه أن التقرير، رغم تأكيده على ما قد يصادفه مقياس الحرية من صعوبات فى الحصول على المعلومات ، ومن التغير والتقلب فى الأوضاع السياسية والاجتماعية، وبخاصة فى الدول النامية ، ومما أصاب العالم من تموجات واضطرابات منذ مقياس (هبومانا ١٩٨٥)، إلا أنه يرى أن التعرف على أحوال التنمية البشرية يقتضى رصد مقومات الحرية وحقوق الإنسان كجزء لا ينفصل عن تقييم تلك

الأحوال . ويختتم ملاحظاته بأنه قد آن الأوان لتكوين مقياس جديد شامل للحرية

ولا شك أن القارىء قد أدرك الآن نوع الخطيئة التى ارتكبها تقرير التنمية البشرية لعام ١٩٩١ بالنسبة للقرار المقدم للجمعية العمومية، وتلك هى إدخاله لقضية الحرية والحقوق الإنسانية كشرط من شروط التنمية والتقدم ورخاء البشر، مما أقض مضاجع كثير من الممثلين الرسميين فى المنظمة الدولية . ولعل الدول المقدمة لمشروع القرار وغيرها ممن صوتت له ما كان لها أن تستثار لو أن قضية الحرية والحقوق الإنسانية قد صيغت فى صورة عامة مجردة ، لكن التقرير تجاوز ذلك ، ووضع لها معايير محددة ومجسات بعينها فى المجالات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية. وأشار إلى محاولة سابقة فى وضع صيغة قياسية كمية، كما نادى بالاستمرار فى تحديث تلك المحاولة وجعلها أداة من أدوات الحكم والتقييم على أنظمة الحكم ، وأن يتم ذلك فى إطار جهود إحدى مؤسسات الأمم المتحدة المعنية .

ويبدو تميز تقرير التنمية البشرية، مقارنة بالتقارير السنوية للبنك الدولى أو صندوق النقد الدولى فى اهتمامه وتركيزه على الجوانب المعنوية واللامادية فى حياة البشر واحتياجاتهم ، كما يتضمن المبدأ القائل بأن تقييم خطط التنمية وجهودها إنما يقاس فى نهاية التحليل بما تحدثه من تطوير كمى وتحسين نوعى فى إشباع حاجات الإنسان وتنمية قدراته، وتفجير طاقاته ومواهبه ، متجاوزا بذلك النظر إلى الإنسان كرأس مال أو

مجرد مورد من الموارد الاقتصادية فى عملية الإنتاج . وبذلك يتأكد المبدأ الإنمائى الراسخ بأن التنمية لا تقف عند حد النمو الاقتصادى، الذى هو وسيلة للغاية النهائية فى تحقيق الانسان لذاته ولإنسانيته حين تتوافر له سلة الخبز ، وضمانات الأمن ، ومجالات المشاركة، ومساحات الحرية، ومشاعر الكرامة .

ولعل التأكيد على ضرورة هذا المركب فى التنمية البشرية، والذى حاول التقرير إبراز بعد الحرية كأحد شروطه ومقوماته قد استفز كثيرا من دول العالم النامى ، مما حفز ممثليها فى الجمعية العامة للأمم المتحدة إلى خنق محاولة المعالجة العلمية لقضية الحرية، وإلى إجهاض أى مجهود لوضع مقاييس يحتكم إليها فى نطاق الأمم المتحدة ، مما يسبب حرجا وكشفاً لأوضاع تلك النظم الاستبدادية .

ثم ماذا ؟

كان من المنتظر أن تنتهز وفود المجموعة العربية والإسلامية فى نقاش هذه الجلسة للجمعية العمومية للأمم المتحدة، التأكيد على أهمية حرية الشعوب وحقوقها فى تقرير مصيرها واستقلالها، والتحرر من مختلف صور الاحتلال والهيمنة، باعتبارها بعداً مهمًّا فى وإتاحة الحرية السياسية للوطن والمواطن . وفى هذا السياق . . كان من الممكن الإشارة إلى قضية الاحتلال الإسرائيلى لأرض الشعب الفلسطينى ومرتفعات الجولان السورية وجنوبى لبنان ، داعية إلى تضمين ذلك فى تقرير التنميةالبشرية لمحور من محاور تنمية البشر . إن حقوق الإنسان ينبغى ألا تتجاهل حقوق الشعوب فى تقرير مصيرها .

المقال الرابع

بين الهمجية، ومرج الزهور*

في مقالات سابقة، أطلقت حكما ذاتيا على احتلال إسرائيل لأرض فلسطين ، وفحواه أن هذا الاحتلال هو أبشع - بل وأحط - صور الاحتلال التى عرفها تاريخ البشرية منذ أن خلق الله تعالى آدم عليه السلام ، ومنذ أن أخذت ذريته تتدافع وتتصارع على سطح هذا الكوكب وفى فضائه . وقد ناقشنى أحد الزملاء فى موضوعية هذا الحكم وإطلاقه التاريخى العام . ولم أطق الجدال العلمى المقارن مع الزميل إذ ذاك، واكتفيت بالقول إننى اشعر من هول ما سمعت من بطش المحتل وجبروته وخداعه ما يتفوق فيه على كافة ما عرفت وقرأت من فظائع الاستعمار الأوربى : البريطانى والفرنسى والهولندى والبرتغالى والألمانى والإيطالى ، وغير ذلك من صنوف الاستعمار فى الشرق والغرب .

(*) مقال نشر فى أوائل عام ١٩٩٣ بمناسبة إبعاد ٤٠٠ من القيادات الإسلامية (حماس) إلى خارج الأراضى المحتلة ، حيث ألقوا بهم على التلال القريبة من الحدود اللبنانية لعدة أشهر فى العراء .

وتشاء الظروف أن يزورني أحد أقاربي من القرية، ممن يتمتعون بقدر محدود من التعليم والاستنارة والوعي السياسي. وتناول حديثنا ـ فيما تناول من موضوعات ـ مأساة إبعاد الفلسطينيين الأربعمائة، حيث بدأت رحلة عذابهم في قفار مرج الزهور وصقيعها وعواصفها، وحيث يشير إليها الإعلام الأمريكي بعبارة (الأرض التي لا يملكها أحد!!). وبدأ هذا القروي حديثه في هذه القضية بحكم ظننته أكثر ذاتية وإطلاقية من حكمي على فظائع الاحتلال الصهيوني، حيث قال معلقا على مأساة الإبعاد (أخبرني هل وقع مثل هذا الحادث في أي عصر من عصور الهمجية، ومن دولة تدعي التحضر والديمقراطية ؟ ! إنهم يفاخرون بأن ليس لديهم حكم بالإعدام، لكن لديهم ما هو أقسى من ذلك : الضرب المبرح حتى الموت، ودفن الأحياء في التراب، وتكسير العظام، وتوجيه الصدمات الكهربائية إلى الألسنة والأعضاء التناسلية وحلمات الأثداء، لديهم القتل بالرصاص للمتظاهرين ممن يلقون الحجارة على جنود الاحتلال. .)

قلت (صدقت يا ابن عمي. . فإني لا أعلم ـ رغم دراية غير قليلة بالتاريخ ـ أن احتلالا آخر قد مارس هذا النوع من الهمجية والبربرية. سمعنا عن نفي الزعماء والقادة إلى أماكن معينة، حيث توفر لهم سبل المعيشة المعقولة، والحركة في حدود مرسومة، وتحت رقابة معينة. كلنا يعرف أين نفي عرابي، وأين نفي سعد، ورفاقه، وأين نفي الأفغاني، ومحمد عبده.

كذلك نعرف أين سجن مانديلا بعد محاكمته، بل وأين كان ينفى ستالين خصومه. وكل هذه الألوان من النفى كانت لأفراد، يقضى عليهم بالإقامة الجبرية فى أماكن معلومة، وفى ظروف مهما قست . . . فإنها تضمن لهم حق الحياة والبقاء ،ولو فى أدنى صورة لكننا مع هذا الإبعاد الجماعى بالمئات أمام ظاهرة همجية لم يعرفها تاريخ الاضطهاد السياسى ، ويبدو أنها بهذه الصورة فى حجمها وبهذه الطريقة من التعذيب تعتبر إبداعا صهيونيا جديدا تسجله صفحات الاضطهاد السياسى للسيد رابين، الذى أوحت لنا الدعايات الصهيونية والغربية بأنه أكثر اعتدالا من سلفه شامير . يبدو أن التلذذ بالتعذيب (السادية) من سمات كل من الحمائم والصقور لدى الصهاينة .

وأردف ابن العم (لقد سمعت أن الجنود الإسرائيليين بعد أن يقتلوا الفلسطينيين المتظاهرين، يدوسون عليهم بأقدامهم، ويدحرجونهم كأنهم يلعبون كرة قدم .

و العياذ بالله ، وهذه همجية لم نسمع بها من قبل . وهل يطلبون منا أن نغفر لهم هذه الفظائع غير الإنسانية . . وكل يوم يخلقون لها مشكلة تصرفنا عن القضية الأصلية ، قضية احتلال الأرض ونهب ما عليها) . .

قلت : نعم. هذا هو جوهر المشكلة. انهم يعتبرون كل فلسطين أرض الميعاد ، وأن ما استولوا عليه من الضفة الغربية وقطاع غزة وأقاموا عليه المستعمرات، هى أرض محررة، وليس أرضا محتلة). وختم ابن

العم حديثه بقوله (كيف لإنسان مثلى أن يتصالح مع الصهاينة مع كل ما يقومون به من قتل وتشريد وإبعاد وهدم للمساكن من أجل قمع الانتفاضة . كذلك فإنى لا أستطيع التصالح مع الصرب، بعد كل ما ارتكبوه من تطهير عرقى ضد مسلمى البوسنة من فظائع تشبه ما يقوم به الجيش الإسرائيلى . . لقد فاق ما يقوم به هؤلاء جميعا كل ما نسمعه وكل ما نعرفه بين أساليب التعذيب). وهنا تذكرت ما عقده الأستاذ أرنولد تورنبى فى كتابه (دراسة التاريخ ١٩٥٤) من موازاة بين ما فعله النازى بيهود أوربا ، وما فعله الإسرائيليون بعرب فلسطين ـ وأضيف وما يزالون ـ يفعلونه حتى اليوم.

أحببت أن أورد هذا الحوار الذى يبدو ساذجا مع واحد من أهل الريف ، لأنه يكشف بخطوطه الفكرية المستقيمة عن عمق المأساة الفلسطينية وعن وعى عميق بها لدى قطاعات كبيرة من الشعب المصرى فى أعماق ريفه. وأتساءل: أين تطبيق قرارات مجلس الأمن حتى فى قضية فرعية حين يطالب بعودة كل المبعدين، وأين حقوق الإنسان، ومواثيق جنيف، وكلها موضع استخفاف أو مساومة أو صلف أو مراوغة لدى إسرائيل ثم أين ما يسمى بالنظام العالمى الجديد ؟ إذ الواقع ليس ثمة نظام ولا عالمى ولا جديد، لكنه استمرار لمنطق القوة والهيمنة وعلاقة الذئب بالحمل مع كل ضعيف وتابع كما خلدها لامرتين .

أذكر هذا الحديث مع ذلك الريفى ليزداد اقتناعى بأنه لا بديل من تعبئة كل قوى المقاومة لدى كل مواطن وجماعة ومنظمة فى ساحات الأمة

العربية ، كما يذكرني بضرورة مواصلة هذه المقاومة فى مصر ، وبخاصة من قبل كافة جماعات المثقفين، وكل القوى الديمقراطية، ودعاة التعزيز لمؤسسات المجتمع المدنى ضد محاولات التطبيع مع إسرائيل .

والجماهير الواعية أنها مقاومة لمختلف مظاهر التطبيع الشعبى ـ اقتصادا واجتماعا وثقافة ـ مع إسرائيل الصهيونية، طالما ظل المسلسل اليومى فى القتل، الذى وصل إلى أكثر من ألف فلسطينى منذ بداية الانتفاضة حسب رواية وكالة رويتر، وهو أقل التقديرات للضحايا، فضلا عن آلاف الجرحى، والتدمير لمئات البيوت، والتشريد والتجويع لآلاف الفلسطينيين ، وطالما ظلت قرارات الأمم المتحدة قابلة للاختراق والتفسير والتأويل لصالح إسرائيل ، وطالما ظلت السياسة الأمريكية ملتزمة بأمن إسرائيل على حساب الحقوق المشروعة للشعب الفلسطينى فى إقامة دولته المستقلة على ترابه .

وأعتقد أننا فى حاجة ، فى خضم ما نشهده من مآس وأحداث دامية ـ إلى أن تنظم صور المقاومة الملائمة، بدءا من تجديد العهد بمقاطعة أى صورة من صور التطبيع، سواء فى لقاء رابين ، أمْ غير رابين. كما أشارت الصحافة إلى ذلك عند زيارة رابين الأخيرة، وعلينا ألا ننخدع كما أثبتت الأحداث بما اصطنعه البعض من مبررات منذ أن ظهرت أسطورة الحاجز النفسى، امتدادا إلى محاولات الاختراق عن طريق البحث، أو إلى المشاركة فى جماعات مبادرة السلام والتعاون فى الشرق الأوسط زعما بأن ذلك سوف يمهد لتحسين أجواء المفاوضات عن طريق إيجاد « أرضية

مشتركة » بين العرب وإسرائيل . . أية أرضية مشتركة إلا إذا كان لنا نحن العرب ـ وبخاصة جماعة المثقفين ـ موقف موحد محدد، ودعونا من أولئك الذين يبالغون فى الحديث عن المتغيرات الجديدة، وكأن الدنيا انقلبت رأسا على عقب ، ولسان حالهم نصيحة أحد الأساتذة الأمريكيين إذ يقولون معه « علينا أن نراجع القيم العربية السياسية السائدة منذ زمن طويل » .

سوف يظل نضالنا صاعدا حتى تتحرر أرض العرب من الاحتلال الصهيونى البشع، وتحياتنا للصامدين فى مرج الزهور ، نشد على أياديهم، داعين لهم بالعودة العاجلة إلى تراب وطنهم ، ومنادين بمساندة كل سعى مخلص من أجل تحرير الأرض العربية وكرامة الإنسان فيها، وإقرار السلام العادل لسكان هذا الكوكب .

المقال الخامس

حرية الاختيار ... رمز الوجود والبقاء*

قال لصاحبه وهو يحاوره . كن ليبرالياً كما تشاء تؤمن بحرية الفرد المطلقة ، لكن تذكر أن للحرية جانبين ، أحدهما جانب التحرر من قيود المرض والخوف والقهر ، لكن هذا التحرر الذى يشعر المرء بالنفرد ليقول ما يشاء يغدو تحرراً منقوصاً ،إن لم يرتبط بالحرية المسئولة فى الاختيار والفعل، بما يضمن لنفسك ولمجتمعك الوجود والبقاء ، والاعتزاز بالهوية والانتماء ، ويتيح لكم إمكانات التقدم والنماء على الآماد القريبة والبعيدة .

واستمر فى حواره يقول : كن انفتاحياً ، أو تنويرياً أو اشتراكيا ، أو مبدعاً ، أو من أهل الحداثة أو مابعدها ، كن كما تشاء من أى من هذه المنطلقات الفكرية مستمتعاً بحرية التفرد والانعتاق من قيود المرض

(*) مقال نشر فى أواخر عام ١٩٩٤ بمناسبة مشاركة بعض المثقفين المصريين فى حوارات سرية مع مجموعة من الإسرائيليين والأمريكيين فى بعض العواصم الأوروبية .

والخوف والقهر ، لكن عليك أن تكون واعياً بمن أنت ، وما خياراتك وسط السيول الجارفة .

وأراد أن يطرح على صاحبه مجموعة من القضايا التى يبدو للبعض أنها لا تتعارض مع توجهاته التنويرية أو الليبرالية أو التحررية أو غيرها من بعض مايملأ صحفنا ووسائل إعلامنا من قضايا ما يسمى بحرية الفكر فى بعض المسائل الجزئية ، دون أن تتسق أو تتواءم أو تتكامل مع قضايا أخرى فى الإطار العام الذى أشرنا إليه من حرية الفكر فى نهاية المطاف والتحليل . . إنها يحكم على سدادها بقدر ما تضمن لك ولمجتمعك مقومات الوجود والبقاء (أقطاراً وأمة) ، وبما يمكنه من الوعى بخصوصية الهوية والانتماء (إلى ثقافة عربية إسلامية احتضنت تراث حضارات عدة فرعونية ويونانية وورومانية وقبطية وإسلامية وتكنولوجية) وبما يتيح له التقدم والنماء (من خلال تنمية طاقاتكم الذاتية فى إنتاج السلع والخدمات وإنتاج المعرفة ومختلف صنوف الثقافة وتوفير مقومات الكرامة لكل إنسان) . واستمر فى حواره مع صاحبه : تتفق معى ـ ياصاحبى ـ فى قضية مساواة المرأة بالرجل فى حقوق المواطنة وواجباتها، لأن النساء شقائق الرجال ، وتتفق معى فى إدانة مختلف صور العنف والإرهاب ومقاومتها بمختلف الوسائل ، وتتفق فى كثير من أبعاد الديمقراطية وترسيخ قواعدها هدفاً ووسيلة . وقد نتفق مع ضرورة تنمية التفكير العملى والعمل الإبداعى ، وقد نتفق مع دور القطاع الخاص فى التنمية فى إثارة التنافس السليم من أجل جودة الإنتاج ومعقولية الأسعار . وقد نتفق مع مفردات أخرى كثيرة .

ومع ذلك فإنى أنظر فى النهاية إلى اتفاقنا واختلافنا فى ضوء ما يحقق الأضلاع الثلاثة للتنمية الحقيقية والمطردة وهى أضلاع البقاء والانتماء والنماء . ومن خلال هذا الإطار أجد أننا فى تناقض مع كثير من المتغيرات التى لم تعد تبقى لنا على ثوابت من خلال مايجرى فعلا مع تحركات عملية السلام . هل سمعت أن الوجود فى عالم اليوم ـ كما يقول قادة إسرائيل ـ هو وجود مصالح وأسواق ، وليس وجود أوطان وقوميا؟ ومن ناحية أخرى . . فإنه لابد لنا من أن نذوب أو نندمج مع العولمة والكوكبة ، وكذلك فيما يعرف بالشرق الأوسط الجديد . ولاجديد فيه إلا التفاعل مع إسرائيل ، والدخول معها فى علاقات تجارية ومشروعات اقتصادية ، باعتبار ذلك هو المنقذ من التخلف وتدنى الأوضاع المعيشية للإنسان العربى المهدد بالسلاح النووى الصهيونى .

وتلك كانت أحد أهداف مؤتمر القمة للشرق الأوسط وشمال أفريقي ، وليس له من القمة إلا حضور رئيسين أو ثلاثة ، لكنه قمة ، لأن الوفود العربية ليست على قمة رأسها القلنسوة اليهودية ، مع أخذ الصور التذكارية . ألم تسمع أن إسحق رابين قد اقترح على أحد بعض العرب أن يكون مثل هذا المؤتمر بديلاً عن جامعة الدول العربية ، خصوصاً وأن عملية السلام سوف تقضى على مبرر وجود تلك الجامعة ، لقد هان بيت العرب على العرب ، وضاعت مؤتمرات القمة التى جسدت طموحاتهم فى الصف الواحد من أجل الكرامة والمصير المشترك ، بل ذهب بعضهم إلى اعتبار مقاومة الاحتلال من ضروب

الإرهاب، كما تسميه إسرائيل، وأنه من المخاطر التى تهدد أمن إسرائيل، متجاهلين أمن العرب وما يهدده .

أتدرى يا صاحبى أن معاهدات سلام قد وقعت ، بيد أنه إذا كان المجد لله فى الأعالى ، إلا أن سلاماً على الأرض لم يحدث . فمازالت أرض فلسطين ـ جوهر الصراع العربى الإسرائيلى ـ محتلة تطغى المستعمرات على أكثر من نصفها فى الضفة والقطاع ، والقدس . . أصبحت موضعاً للصراع بين العربى والعربى ، وتعلن وتكرر إسرائيل أنها عاصمتها الأبدية الموحدة . ويطالب كثير من « التحرريين » بالقضاء على كل صور المقاومة فى الأرض المحتلة ،لأنها تعكر صفو السلام، ويطالب «التحرريون» بإعادة تأهيل أطفال الحجارة، لأنهم تعودوا على عادات غير متحضرة بإلقاء الحجارة والزجاجات على جنود الاحتلال الإسرائيلى .

وتتكاثر مشاهد العناق بين العرب وعدو الأمس، من خلال الزيارات والمهمات والبعثات ممن انقلبوا إلى صداقة حميمة، لم يشهد التاريخ لها مثيلاً فى سرعة تحولها، وما انتهت إليه . وحتى حين نصنف الماضى ونشير إلى حروبنا مع إسرائيل لا نذكرها بالاسم ـ أدباً وخشية وتلطفاً ـ وإنما نشير إليها باسم العدو ، ونجد ذلك حتى فى الكتب المدرسية المقررة فضلاً عن الاحتفاليات بنصر أكتوبر المجيد وفى الأحاديث الإذاعية .

ثم ألا ترى معى أن بيان مؤتمر القمة الاقتصادى لم ترد فيه كلمة عن

العرب المشاركين فيه ، وهم أمة يقترب عدد سكانها من عدد سكان الولايات المتحدة ، ثم إن البيان الختامى للمؤتمر كان متطابقاً إلى حد كبير جداً مع بيان وزير الخارجية الأمريكى فى منطلقاته وتوصياته . وما قولك - يا صاحبى - فى سوق المشروعات البترولية والطرق والقنوات والصناعات وبنوك التمويل ، وكلها مشروعات لا ينتظر أن تستفيد منها مصر ، أو الأقطار العربية ، ومعظمها سوف يكون نصيب الأسد فيها لإسرائيل على حساب المصالح العربية . . فماذا ينفع التحرر إذا تهاوت أضلاع مثلث التنمية العربية بقاءً وانتماءً ونماءً فى إطار سلام ما يزال أوراقاً أكثر منه واقعاً ، وحكاماً أكثر منه شعوباً، ووعوداً أكثر منه تجسيداً . ومن منا لا يحب السلام ويسعى لتحقيقه والحرص على تدعيمه، شريطة أن يقوم على إنهاء الاحتلال واسترداد الحقوق ، لا على وعود الدولارات والمعونات والأمر الواقع .

بالإجلال والتقدير يا صاحبى نذكر تلك الكتب المدرسية التى قرأنا فيها أشعار الكرامة ، مقرونة بالحرية والاعتزاز :

لا تسقنى ماء الحياة بذلةٍ

بل فاسقنى بالعز كأس الحنظل

وشاعر آخر يصيح :

ولا يقيم على ضيم يُراد به

إلا الأذلان عير الحى والوتدِ

هـذا على الخسـف مربوطٌ برمتـه

وذا يُشـجُّ فـلا يـرثـى لـه أحـــد

. . وا قدساه . . وا قدساه . . ستظل (الأرض بتتكلم عربى) بعد أن طغت العبرية فى كازا بلانكا .

المقال السادس

عن مذبحة الحرم الإبراهيمى
ما أشبه الليلة بالبارحة !!*

فى عام ١٩٨٥ كتب صحافى إسرائيلى فى مجلة (كوتيرت راشيت) «إن الواقع الإسرائيلى يتقبل أبشع فكرة، إذ إنها تتطور لديه على النحو التالى الفكرة المجرمة تصبح فكرة مجنونة ، والمجنونة تغدو غريبة ، والغريبة خاطئة ، والخاطئة جيدة، بل وممتازة أحياناً » . ويتابع الكاتب تحليله للتيار الفكرى المهيمن صهيونيا بقوله « أثبتت السنوات الأخيرة أن كل فكرة تطرح ـ شريطة أن تكون متعصبة قوميا ـ لا تصبح أمراً واقعا فحسب ، وإنما تقبل رسميا كإجماع قومى . . » وإذا كان ثمة معارضة لغلوها ، يصدر بيان رسمى لاستنكارها ، ولكن مع التاكيد على ضرورة (تفهم الدوافع والحوافز) التى أدت إليها من جانب الإرهاب الفلسطينى» . وفى هذا السياق تشخص القوى الإسرائيلية مذبحة الحرم الإبراهيمى الشريف ، وقد انعكس هذا فى البيانات الرسمية ، وفى تبرير زعيم حزب الليكود لدوافع تلك الجريمة وهناك من يرى أن إبادة

الشعب الفلسطينى « هى مهمة توراتية مقدسة لتطهير أرض اليهود المقدسة »

وفى أكثر من مقال ميزت الاحتلال الصهيونى لأرض فلسطين بأنه أفظع وأبشع صور الاحتلال والطغيان عبر مسيرة التاريخ البشرى منذ أن عرفنا صراع هابيل وقابيل، مرورا بالاستعمار الأوربى بمختلف صوره وأشكاله فى قارات أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية . وكنا نظن أن أقسى وأشنع وسائل الاضطهاد والتعذيب والقهر قد انتهت فصولها مع القضاء على النازية والفاشية . لكن الاحتلال الصهيونى منذ عام ١٩٤٨ حتى اليوم قد جمع كافة أساليب الاحتلال والاغتصاب والتدمير والاضطهاد والتعذيب ليمارسها على الأرض ومع الشعب العربى ، بل أضاف إلى ذلك كله ما استطاع العقل الصهيونى أن يبدعه من أشكال جديدة للجبروت وفى مجالات لم تعرفها البشرية من قبل .

وتأتى المذبحة الجماعية البشعة للركع السجود فى الحرم الإبراهيمى وهم يسبحون ربى العظيم وربى الأعلى فى فجر يوم يستقبلون صيامه . ومع هول الفاجعة وعمق الغضب، تذكرت أن ذلك ليس بمستغرب على حكام إسرائيل وأفكارهم الصهيونية . وحاولت أن استرجع جريمة لاحتلال يقترب من جريمة الحرم الإبراهيمى الذى اقتحمه مطلقو الرصاص فى ذلك المكان المقدس ، فتذكرت دخول عسكر نابليون بخيولهم إلى ساحة الجامع الأزهر عام ١٧٩٨م ، وما رواه الجبرتى عن

تخريبهم وتدنيسهم لذلك الجامع الشريف . وقد لحقت تلك الصورة البشعة من العدوان على المقدسات من كان موجودا بالجامع فى ذلك اليوم حيث يقول الجبرتى (وكل من صادفوه به عرّوه، ومن نيابه أخرجوه) لكنهم لم يطلقوا عليه الرصاص أو «البومبات » لكن الإبداع الصهيونى لم يتردد عن سفك الدماء برصاصه والقوم ركع وسجود لرب العزة .

ودعونا نشير من قبيل استيعاب درس الفاجعة ومغزاها إلى بعض من الصور الاجرامية التى تميز بها الاحتلال الإسرائيلى لأرض فلسطين. أكرر احتلال فلسطين، حيث إن هذه الكلمة قد طمست فى سياق ما يسمى بمسيرة السلام الحالية ، بل إن فريقا كبيرا من صهاينة إسرائيل يزعمون بأنهم حرروا أرض الثورة، وعادوا إلى إرث الأجداد فى يهودا والسامره. ومن خلال جبروت الاحتلال ونسج الأساطير قامت إسرائيل متحدية أمة العرب كل من المجتمع والقانون الدولى .

ولقد كان الاستيلاء على الأرض وانتزاعها وتغيير ملكيتها فى صدارة أولويات الاحتلال الإسرائيلى ، وتقدر مساحة الأرض التى استولت عليها فى الضفة الغربية بأكثر من ٥٢ فى المائة من إجمالى مساحتها ، كما انتزعت أكثر من ٣٠ فى المائة من أراضى قطاع غزة . وتذرعت لذلك بمختلف الذرائع العسكرية والأمنية ، بل وزعمت أنها خليفة السلطان العثمانى وللسلطة الأردنية والمصرية على الأرض المحتلة .

وتشير بعض الدرسات إلى أن نسبة سيطرة إسرائيل الحقيقية على

مجمل الأراضى فى الضفة والقطاع تبلغ حوالى ٦٥ فى المائة من تلك الأراضى . ويتضح ذلك إذا ما أضفنا ما ترتب على القوانين العسكرية التى قيدت استخدام الأراضى الفضاء فى المناطق العربية فى ضوء مصالح إسرائيل ، والتى منعت المدن والقرى العربية من التوسع فى أراضيها بحيث تصبح الأراضى الفضاء غير المبنية مناطق لسيطرة قوات الاحتلال ، هذا فضلا عن سياسة نظام التخطيط التى تمكّن لإسرائيل من شق بالطرق المفرطة فى العرض بحيث يتراوح عرض الطرق المحلية ٤٠ مترا والطرق الرئيسية ١٢٠ مترا ، وبحيث يحظر على الفلسطينيين أى بناء على جانبى هذه الطرق على مسافة ٧٠ مترا للطرق المحلية ، ١٥٠ مترا على الطرق الرئيسية ، وذلك ضمانا لأمن إسرائيل .

وقد قرأنا أخيرا عن البدء فى شق طريق رئيسى على مشارف أريحا ، حتى يمكن من خلاله أن يتحكم طريق جربكو (وهى التسمية الإسرائيلية) على أوضاع أريحا فى أعقاب اتفاق المبادىء .

ثم جاءت سياسة المستوطنات أو المستعمرات على الأصح لتقوم على الأرض المنزوعة والمصادرة ولينتقل إليها اليهود من إسرائيل ومن المهاجرين إليها من الخارج ، ويقدر عددها بها لا يقل عن ٢٥٠ مستعمرة منها حوالى ٣٠ فى غزة ، ويبلغ مجموع سكان المستعمرات حاليا حوالى ١١٠ ألاف . وقد أنشئت بعض هذه المستعمرات لتكون مواقع عسكرية ، بيد أنه بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣ التى ألقت الرعب فى قلوب الصهاينة أصبح جميع المستوطنين من حملة السلاح ، وذلك حسبما ورد فى إحدى

الصحف الإسرائيلية من (إن الدرس الذى تعلمناه من حرب يوم كيبور هو أنه ينبغى تسليح كل مستوطنة كما لو كانت قلعة عسكرية) ومع تغير الاحتلال لواقع الأرض والسكان والاوضاع القانونية لكل من القدس الشريف ومرتفعات الجولان السورية ، ودعاوى تحرير أرض الأجداد والعودة إلى أرض التوراة الموعودة (ايرتس إسرائيل) يستمر جيش الاحتلال مع العصابات الصهيونية وأنصارها من سكان المستوطنات فى ارتكاب أفظع صور الاضطهاد للشعب الفلسطينى، ومنها على سبيل المثال . . التنكيل والقتل والاعتقال والسجن والطرد من الديار والنفى ، وبقر بطون الحوامل ودفن الأحياء وكسر الأيدى والرقاب ، وحصار المدن والقرى ،بل إغلاق المناطق العربية كلها لأيام وأسابيع وشهور ، والسيطرة على موارد المياه والكهرباء الصالح المستوطنات ، فضلا عن التمييز العنصرى فى سوق العمل الأسود ، وفى إقفال المدارس والجامعات لآماد طويلة وطمس الهوية الفلسطينية فى المناهج وفى مجالات الثقافة والفنون .

ويكفى أن نذكر أسماء بعض الجماعات والعصابات الصهيونية لنسترجع ما تعرض له الشعب الفلسطينى من تعذيب وانتهاك صارخ فى كافة حقوقه الإنسانية . لا يغيب عن الذاكرة جماعات غوش أونيم ، وحركة كاخ التى تزعمها مائير كاهان وحزب تحيا وغيرهم ممن لطخوا تاريخ البشرية بفظائعهم ومحاولاتهم لاقتلاع العرب من أرضهم والمناداة بنقلهم خارج أرض اسرائيل .

نتذكر كل ذلك ،كما نتذكر ما استطاعت أن توجهه الانتفاضة بحجارتها وأطفالها فى معركتها مع جيش الاحتلال ومستعمراته وعندما أذهلتنا أخيرا فاجعة الحرم الإبراهيمى وضحاياه ، تذكرت على جه الخصوص إشعال النيران فى المسجد الأقصى وقبة الصخرة فى الصبيحة الباكرة من يوم الخميس ٢١/٨/ ١٩٩٦ عندما استيقظ أهل القدس مذعورين على ضرام نيران تنبعث من المسجد الأقصى ثالث الحرمين وأولى القبلتين . وقامت الجماهير العربية تطفىء النار بسواعدها حتى حضرت فرق الإطفاء العربية . وقد لحق بالمسجد وسقوفه ومحاريبه ومنابره وسجاده خسائر فادحة . وإلى جانب هذه الخسائر المادية فى هذا الصراخ المقدس لحقت بالكرامة العربية والقداسة الإسلامية جروح غائرة ما تزال تنزف هوانا وعجزا .

وقد كان الحريق المروع تنفيذا لمحاولات سابقة تهدد بإزالة المسجد الأقصى وقبة الصخرة حتى يمكن بناء هيكل سليمان مكانهما . وقد قيل فى تأخر وصول رجال الحريق من اليهود والتباطؤ فى إخماد النيران خوفهم من الاقتراب من المسجد والتعرض لغضب الجماهير . كذلك قيل أن الذى قام بإشعال الحريق شاب استرالى مجنون ينتمى إلى طائفة مسيحية تعرف باسم كتيبية الله ، لكن التحقيقات أثبتت أنه يهودى رسما واسما ، فهو (مايكل روهن) كان بكامل قواه العقلية حين صب المواد القابلة للاشتعال على المنبر الأثرى المصنوع من الأبنوس المطعم بالعاج والذى امتدت ألسنة لهبه إلى بقية أرجاء المسجد . وإذا لم يكن من مفر من

الاعتراف بصهيونية جولد شتاين مجرم الخليل ، إلا أن مزاعم جنونه كانت من المبررات التقليدية لسلطات الاحتلال وقتل المصلين فى المسجد الإبراهيمى هو حلقة فى تخريب المقدسات الإسلامية والمسيحية فى أرض فلسطين وتهويدها وصهينتها . ولنذكر مقولة هيرتزل مؤسس الصهيونية (سأدمر كل شىء ليس مقدسا لدى اليهود) محاولة حرق المسجد الأقصى وقبته تطبيق لمقولة بن جوريون (لا معنى لإسرائيل بدون القدس، ولا معنى للقدس بدون الهيكل) ، ومقولة الحاخام الأكبر ١٩٩٦ (عندما نعيد بناء الهيكل سنتوقف عن البكاء والحداد)

وتذكرت ذلك الحريق مع مذبحة الحرم الإبراهيمى، مرددا ما أشبه الليلة بالبارحة فى جرائم العنصرية الصهيونية التى أصبحت العقيدة العنصرية الوحيدة فى العالم بعد نهايتها فى جنوب أفريقيا ، وذلك رغم إعلان مبادىء غزة ـ اريحا . ورددت نفس العبارة حين نقلت إلينا الصحف معارضة الولايات المتحدة لقرار فى مجلس الأمن لحماية الفلسطينيين من مذابح الصهاينة فى الأراضى المحتلة ، وهى نفسها التى امتنعت عن الموافقة على قرار يطالب إسرائيل بالالتزام بقرارات الأمم المتحدة وعدم قبول الاستيلاء على الأراضى بالغزو العسكرى ، وذلك فى القرار الذى أصدره مجلس الأمن على أثر حريق المسجد الأقصى برقم ٢٧١ لسنة ١٩٦٩ . واستمعت إلى بيانات الإدانة والشجب من الملوك والرؤساء والنقابات والأحزاب وغيرها من الهيئات الاجتماعية ، وتمنيت الا أردد عبارة ما أشبه الليلة بالبارحة وتذكرت الجبرتى مرة أخرى حين

اعترض على موقف بعض أهل القاهرة من عسكر الفرنسيس ممن كانوا (يقاتلون ويحاربون بصياحهم وجلبتهم) (فيردهم عقلاء القوم إلى اتخاذ أساليب إيجابية فلا يستمعون ولا يرجعون عما هم فيه . . ومن يقرأ ومن يسمع) وأتساءل لو عاد مؤرخنا اليوم ليشهد موقفنا من مذبحة الحرم الإبراهيمى ، فهل سيردد مقولة : ما أشبه الليلة بالبارحة ! !

المقال السابع

للتذكير والتفكير والتفعيل
عملية السلام بين المطرقة والسندان *

خلال عملية السلام تؤكد إسرائيل (المطرقة) بعقيدتها الصهيونية الغاصبة مجموعة ضخمة من « اللاءات » تعتبرها مسلمات ، كما يعتبرها أنصارها ـ وبخاصة الولايات المتحدة الأمريكية ـ (السندان) وأهم أنصارها وحلفائها . وغدت بعض تلك المسلمات مقبولة (وجوبا أو جوازًا) من بعض قيادات الأمة العربية ذاتها !! وفى ضوء الواقع الغربى المأزوم انقلبت الآية لتصبح لاءات إسرائيل معقولة وطبيعية ، بينما تحولت لاءات العرب والفلسطينيين أهل الحق والأرض مغالية وغير واقعية ، إذ تجاوزها الزمن وعدت عليها عوادى المتغيرات .

ومن بين تلك القائمة الطويلة من اللاءات الإسرائيلية (لا) للحقوق المشروعة التى اعتمدتها قرارات الأمم المتحدة ، وبخاصة قرارى مجلس الأمن ٢٤٢ ، ٣٣٨ (يرحمهما الله)، (ولا) لإزالة المستوطنات ، أو حتى

* مقال نشر فى أوائل ١٩٩٤ ، تعليقا على سياسة رابين وحزب العمل عندما نجح فى الانتخابات الإسرائيلية .

التوسع فيها رأسيا ، (ولا) لتجريد سكانها من البنادق والرصاص ، (ولا) للأمن الفلسطينى ، لأنه يتعارض مع أمن إسرائيل هاجس الصهاينة الذى لا يهدأ ، (ولا) لإيقاف القتل والتنكيل والبطش بالفلسطينيين، (ولا) لحراسة المعابر الحدودية ، (ولا) للدولة الفلسطينية . وأخيراً وليس آخراً لا لاعتبار القدس الشرقية جزءا من الأراضى المحتلة، إذ إنه قد تم إدماج القدس بشطريها لتصبح عاصمة إسرائيل الموحدة الأبدية ، ولاءات ، ولاءات أخرى كثيرة كشفتها المرحلة القصيرة لمفاوضات غزة ـ أريحا ، وزيارة رابين الأخيرة لواشنطن .

تلك هى بعض مُسَلَّمات العقيدة الصهيونية التى علت أصداؤها التى لا تنقطع من خلال مطرقة رابين الغاشمة ، والذى تراءى للبعض أنه صهيونى السلام مع مجىء حزب العمل إلى الحكم . وأى سذاجة عربية تلك التى ظنت أنه سوف يكون مفارقًا لسنن سلفه من قادة الصهيونية العنصرية . أليس هو المردد لتلك اللاءات ، وآخرها ما أعلن فى زيارته الأخيرة لواشنطن أنه لا للأمن الفلسطينى ، وأن مذبحة الحرم الإبراهيمى لن تزحزح إصراره بأولوية أمن إسرائيل على حساب أى أمن آخر ، ولاتنازلات لمنظمة التحرير الفلسطينية من أجل أن تستأنف المفاوضات .

سجل رابين لايقل فى فاشيته الصهيونية عن سنن أسلافه ، فهو صاحب سياسة تكسير عظام الفلسطينيين عندما كان وزيراً للدفاع ، وصاحب سياسة تجويعهم ومنع المساعدات الغذائية عن المخيمات أيًّا

كان مصدرها ، وهو قاطع الكهرباء والماء ، وهو الذى ضاعف من عقوبات الطرد الجماعى للأطباء والمحامين والصحفيين ، وآخرها مجموعة مرج الزهور . هو رابين الذى صدرت فى عهد رئاسته أحكام بالسجن خمس سنوات لعشرات من الأطفال الذين لم يبلغ عمرهم أربعة عشر عاما بتهمة إلقاء الحجارة، وتغريم آبائهم ألف دينار عن كل طفل . وهو الذى أغلق المدارس والجامعات فى الأراضى المحتلة لفترات طويلة غير مسبوقة ، حتى أن صحيفة نيويورك تايمز الأمريكية علقت على ذلك فى عنوان ضخم (تعتبر ممارسة الأنشطة التعليمية فى الضفة الغربية عملاً إجراميًّا) وقائمة الجبروت الرابينى فى مواجهة الانتفاضة طويلة لا يتسع هذا المقال حتى لبعضها ، يضاف إليها كثير مما تحلى من اتجاهاته الصهيونية على الجبهات السورية واللبنانية ، بل وخلال المفاوضات مع مصر.

وعلى العقيدة الصهيونية يظل رابين مردداً مقولات حق الشعب المختار فى فلسطين تلك الأرض الموعودة بالتوراة ، وفى أمن إسرائيل من خلال المستوطنات ، وفى الحق الإلهى بأن تظل القدس (كلاً وموحدة عاصمة للشعب الإسرائيلى فى ظل السيادة الإسرائيلية لأنها المؤمل الذى يصبو إليه ويحلم به كل يهودى) كما جاء فى خطابه أمام الكنيست عند توليه رئاسة الوزارة عام ١٩٩٢ ، حين استبشر العرب بمقدمه . وبذلك يؤكد حق اغتصاب الأرض بالسند التوراتى ، وهو مالم نسمع به مبرراً للاستيلاء على أرض الغير فى أى عرف أو قضاء دولى فى التاريخ

الحديث. وفى صدد هذا الزعم التوراتى يعلق أحد المفكرين المسيحيين الذين يلتزمون بالنصوص الدينية (إن اليهود القدامى قد أخفقوا فى طاعة الوصايا الإلهية ، ومن ثم سقط عنهم هذا الحق الموعود).

وإذا انتقلنا إلى أمريكا السندان لنتعرف على سياساتها وما يتوقع منها خلال عملية السلام، فعلينا أن نقرأ كتاب Paul Findley وعنوانه :

Deliberate Deceptions - Facing the FACTS about the US Israeli Relations

وترجمته : (الخدع المتعمدة ـ مواجهة الحقائق فى العلاقات الأمريكية الإسرائيلية).

ويحاول فندلى ـ العضو السابق فى مجلس النواب الأمريكى لأكثر من عشرين عاما ـ فى هذا الكتاب تصحيح كثير من المُسَلَّمات التى شاعت لدى الرأى العام الأمريكى، وتوضيح مواقف التحيز والمساندة والتبرير والضغط التى أبداها ـ وما يزال يبديها ـ كل من البيت الأبيض والكونجرس الأمريكى لدعم مواقف إسرائيل . وفى هذا الكتاب يعدد حوالى ١٣٠ من الأكاذيب والافتراءات والمغالطات ، ويقوم بتفنيد كل منها على أساس من الوثائق والحقائق التى لم يظهر بعضها إلا منذ سنوات قليلة، كحادث إغراق السفينة الحربية (الحرية). والكتاب يقدم أدلة دامغة على مدى مساحات التواطؤ وعمق التحالف بين الولايات المتحدة وإسرائيل إذا كان العرب ما يزالون فى حاجة إلى أدلة

موثقة . ويبدو أن ظهوره فى منتصف عام ١٩٩٣ ، وما أعقب ذلك من احتفالات ببشائر السلام المرتقب ، وتحسين صورة إسرائيل بقيادة رابين رجل السلام ، قد صرفت القراء عن الاهتمام بمعطيات هذا الكتاب الصارخة والدافعة لتوجهات كل من المطرقة والسندان .

والسندان فى مفهومنا هو الولايات المتحدة الأمريكية، التى ظلت منذ إنشاء الدولة الإسرائيلية سنداً وتكأة وقاعدة لكل طرقات العسف والتشريد وسفك الدماء . إن مواقف السندان الأمريكى ومساندته ، بل وتضحياته من أجل إسرائيل منذ إنشائها كثيرة لا تحصى ، عسكريا ، وماليا ، ومعنويا وسياسيا ودبلوماسيًّا ، واستراتيجيا وإعلاميا ، بل فى كل مجال تحتاج إليه ، سواء بطرق مشروعة، أَمْ غير مشروعة ، ظاهرة أَمْ خفية . وكتاب فندلى المشار إليه لا يترك مجالاً للغموض فى تلك المساند، بل والتواطؤ الصريح والتضحية المكلِّفة لدافعى الضرائب الأمريكية . ولا شك فى أن هذا الدعم بغير حدود ـ كما وصفه فندلى ـ قد مثل عقبة من العقبات الكأداء فى استرداد الفلسطينيين وغيرهم من العرب لحقوقهم المشروعة ، بل كان ظهيرا وسندانا تطرق عليه إسرائيل دعاواها فى التوسع فى الجولان ولبنان ، وفى بناء المستعمرات وامتلاك أحدث تكنولوجيا السلاح والصناعة ، بل والمتاجرة بها مع الصين، وبمختلف أنواع السلاح مع دول أفريقيا وآسيا . ويشير فندلى إلى أن الكونجرس ينظر إلى تقديم المعونة لإسرائيل على أنها قضية شبه مقدسة ، وأنه مهما حاول التخفيض فى حجم المعونات ، فإن ذلك التخفيض يتوجب ألا يمس

إسرائيل، وأن تتم الموافقة على المعونة دون أدنى معارضة أو حتى مجرد همس (مما أدى بى إلى الاعتقاد أنه أهم من نفقات التأمينات الاجتماعية أو التأمين الصحى للشعب الأمريكى على حد تعبير فندلى . ويقدر ما يصل من الولايات المتحدة من معونات لإسرائيل بحوالى ألف دولار سنويا لكل رجل، ولكل امرأة ، ولكل طفل فيها .

ويضيف فندلى إلى ذلك ما صدر من دعم لمعونات إسرائيل فيما عرف بتعديل كرانستون نسبة إلى عضو الشيوخ الذى تقدم به، وفحواه الإقرار بأن ما يقدم لإسرائيل من عون سنوى ينبغى أن يكون على الأقل مساوياً لخدمة ديون الولايات المتحدة الأمريكية التى تلتزم إسرائيل بسدادها (بما فى ذلك الأقساط والفوائد المستحقة) هذا. . فضلاً عما يتاح لإسرائيل من قدر كبير من حرية التصرف فى المعونات والقروض، دون شروط فى استخداماتها العسكرية أو المدنية . وتبلغ المعونات التى حصلت عليها إسرائيل من الولايات المتحدة منذ عام ١٩٤٩ حتى نهاية عام ١٩٩١ حوالى ٥٣ مليار دولار ، وهو ما يمثل ١٣ فى المائة من مجموع المعونات العسكرية والاقتصادية التى قدمتها للعالم خلال تلك الفترة .

أما عن الإذعان الأمريكى لابتزاز إسرائيل، فحَدِّث وأطنب ولا حرج . . . فبعد إعلان المبادىء غزة ـ أريحا ، تلقت إسرائيل سربًا من أحدث الطائرات المقاتلة ف ١٦ ، وفى نظير قبولها للاشتراك فى مؤتمر مدريد، ضغطت أمريكا على دول العالم بكل ثقلها لتلغى الجمعية العامة للأمم المتحدة قرارها السابق الذى يقرر مساواة الصهيونية بالعنصرية .

ولمعالجة ما تعرضت له إسرائيل من أزمات اقتصادية عام ١٩٨٥ ، تم تحويل كل المساعدات العسكرية والاقتصادية إلى منح نقدية منذ ذلك التاريخ، بدلا من اعتبارها قروضا ، وأضيف إلى المعونة المقررة إذ ذاك منحة ١,٥ مليار، ليصل مجموع المنحة إلى ٤,١ مليار دولار . وفى ١٩٩٠ ، مساهمة منها فى مواجهة هجرة اليهود الروس والأحباش، منحت ٤٠٠ مليون اعتمادات قروض لبناء المساكن. هذا. . فضلاً عن المليارات العشرة التى منحت لنفس الغرض بعد ذلك. أضف إلى هذا . . عديد من المعونات التى وجهت للأبحاث المشتركة فى إنتاج وتطوير الصواريخ والطائرات . والقائمة طويلة جدا .

ولعل آخر ما نما إلى عملنا ، هو مساندتها الديبلوماسية فى الحيلولة دون إدانة مجزرة الحرم الإبراهيمى ، والاعتراض على إرسال قوات دولية مسلحة لحماية الفلسطينيين من اعتداءات المستوطنين، والحفاظ على حقوق الإنسان فى الأراضى المحتلة . ويبدو أن تلك الحقوق تقع فى مكيالها الثانى بالنسبة للفلسطينين ، وذلك فى نفس الوقت الذى يذهب وزير خارجيتها إلى الصين ليحذرها ويهددها من جراء موقفها من حقوق الإنسان حسب المفهوم الأمريكى وتجلى التواطؤ فى أفحش صوره خلال ذلك الاجتماع الذى عقده رئيس الولايات المتحدة الأمريكية أخيراً مع قادة منظمة « ايباك » اليهودية الأمريكية ، كما روت لنا جريدة الأهرام فى ١٥ مارس ١٩٩٤ ومنظمة AIPAC (ايباك) اختصارًا لـ :
(American Israel Public Affairs Committe)

وهى أقوى منظمات اللوبى الصهيونى فى أمريكا . وفى ذلك الاجتماع أبلغهم كلنتون بأن قرار مجلس الأمن الذى طال انتظاره لإدانة مجرزة الحرم الإبراهيمى إذا صدر فلن يمس القدس، وأن الولايات المتحدة تعتبر القدس الموحدة عاصمة لإسرائيل . وفى صحيفة الحياة (نفس التاريخ) أوردت أن آل جور نائب الرئيس فى كلمته إلى نفس الاجتماع يصرح بأن (العلاقات الأمريكية الإسرائيلية أوثق من أى علاقات قائمة بين الولايات المتحدة وأى من حلفائها ، أو أصدقائها فى العالم ... وأريد أن أؤكد لكم فى هذه اللحظة الحرجة أن الرئيس وأنا لم نَنْسَ معنى القدس) . وقد جاءت العبارة الأخيرة بناء على تذكير أحد المجتمعين له بموقفهما الانتخابى من القدس الموحدة وعدم اعتبارها جزءًا من من الأرض المحتلة كما اقترح فى مشروع قرار مجلس الأمن المحتضر ، مع أن ذلك الوضع هو ما نصت عليه كافة قرارات الأمم المتحدة ، بل وما كان عليه الموقف الرسمى للحكومة الأمريكية حتى آخر تصريح للرئيس بوش فى مارس ١٩٩٠ . ويتابع جور حديثه ليقول : (إن المطلوب هو قيام حكم ذاتى للفلسطينين يكون مستقرا ومزدهراً ... وعلى سوريا أن تقرن الأقوال « رغبتها فى سلام شامل عادل» بالأفعال) .

وتابع فى كلمته تصميم الإدارة الأمريكية على إلغاء المقاطعة الاقتصادية العربية ضد إسرائيل ، وهو أيضا ماحرص كلنتون على تأكيده فى مؤتمره الصحفى الأخير مع رابين ، إلى جانب دعوته الضاغطة إلى منظمة التحرير لاستئناف المفاوضات .

وهذه كلها تصريحات خطيرة ومقلقة ، بل قاتلة بالنسبة لمختلف الجبهات العربية والإسلامية ، وبخاصة تلك التموجات نحو اعتراف الإدارة الامريكية الحالية بالقدس الموحدة عاصمة لإسرائيل . وقد يأتى هذا قبل موعد المرحلة الثانية من المفاوضات، مما يجعل القدس خارج أى مجال للتفاوض على الإطلاق . . ولن تجد الحكومة الأمريكية صعوبة فى الموافقة على مثل هذا التغيير ، خصوصاً إذا علمنا أن الكونجرس قد أصدر منذ عام ١٩٨٨عدة قرارات (لكنها غير ملزمة قانونيا) باعتبار القدس عاصمة لإسرائيل ، ونقل السفارة الأمريكية إليها .

وبعد ، فتلك صورة مفجعة لنا فيما نتوقعه من عملية السلام، فى الوقت الذى لا يبدو أى بصيص أمل للتغير فى حركة كل من المطرقة والسندان ، فأخبار الأرض المحتلة تموج بالاستشهاد والموت اليومى ـ قبل مذبحة الخليل وبعدها ـ ولا نكاد نسمع من أنباء وليد جديد فيها ، بل حتى على أية من الساحات العربية الأخرى . وهل نتوقع أن يتسرب من خلال هذا القتام شعاع ؟ إنه لن يأتى إلا من بديل احد ، موقف عربى موحد ضاغط وحاسم لتغير الولايات المتحدة من تحيزها لتكون راعياً شريكاً منصفاً فى عملية السلام ، وأن يتحقق ذلك عن طريق الأفعال لا الأقوال أو الرسل من الوزراء والممثلين ، وذلكم هو المطلوب منا نحن العرب من قبل ومن بعد .

المقال الثامن

للحقيقة والتاريخ

الخدع السياسية فى حرب يونيو ١٩٦٧*

أعتمد اعتماداً كاملاً فيما أورده عن أحداث العدوان الإسرائيلى على الأراضى العربية، احتلالها فى حرب يونيو ١٩٦٧ على ما سجله بول فندلى فى كتابه (الخدع المتعمدة ـ مواجهة الحقائق حول العلاقات الأمريكية الإسرائيلية) الصادر عام ١٩٩٣ وعنوانه بالإنجليزية Paul Findley , Deliberate Deceptions - Facing the Facts about the US - Israeli Relations .

وبول فندلى ظل عضواً فى مجلس النواب الأمريكى لأكثر من ٢٢ عاماً خلال الفترة من ١٩٦١ ـ ١٩٨٣ ، ومؤلف كتاب آخر عام ١٩٨٩ ترجم إلى العربية بعنوان (لقد تجرأوا على الكلام ـ الناس والمؤسسات تواجه اللوبى الصهيونى) ، وهو كذلك رئيس لمجلس المصالح

(*) مقال نُشر فى منتصف ١٩٩٤ لتوضيح النية المبيتة من قبل إسرائيل للعدوان على مصر فى يونيو١٩٦٧ بالتواطؤ مع الولايات المتحدة الأمريكية ، فى ضوء ما ورد فى كتاب فندلى عن الخدع الإسرائيلية .

الأمريكية ، لذا . . فإن كتاباته تعبر عن وجهة النظر الأمريكية ، وما ينبغى أن تتخذه من مواقف حول الصراع العربى الإسرائيلى . ويفند فى كتابه (الخدع المتعمدة) بالوثائق الرسمية المصادر الأصلية كثيرا من الادعاءات الكاذبة والافتراءات التى اختلقها قادة إسرائيل خلال ما اضطرب به ذلك الصراع من أحداث .

● الهجوم المبيّت على الأراضى العربية

ويعنينا هنا الافتراءات الخاصة بحرب عام ١٩٦٧ ، وأولها أن إسرائيل هى المُبَيِّتة للعدوان والبادئة به ، بدليل ما صرح به بعض قادة إسرائيل أنفسهم بعد نهاية تلك الحرب ، معلنين أنها كانت المهاجمة ، وأنها لم تواجه أى معارضة من الولايات المتحدة . ويسوق لذلك تصريحات عدة، منها تصريح مناحيم بيجن بعد الحرب [لقد كانت (الحرب) اختياراً ، حيث قررنا مهاجمة جمال عبد الناصر]. وفى تصريح لعزرا وايزمان (رئيس إسرائيل الحالى) عام ١٩٧٢ [لم يكن هناك تهديد من قبل الدول العربية]. وفى حديث بنفس العام للجنرال ماتينياهو بيليد [الزعم بأن القوات المسلحة المحتشدة على حدودنا (ويعنى القوات المصرية التى أرسلت لسيناء فى مايو ٦٧) كان فى مقدورها تهديد وجود إسرائيل، إنما يمثل امتهاناً لذكاء أى إنسان قادر على تحليل ذلك الموقف ...] أما إسحق رابين وكان إذ ذاك رئيس أركان القوات الإسرائيلية ـ فقد صرح عام ١٩٦٨ [إننى لا اعتقد أن ناصر كان يريد حرباً ، ذلك لأن عملية الفرقتين اللتين أرسلهما إلى سيناء فى ١٤ مايو لم تكن كافية

لكى تنطلق إلى هجوم على إسرائيل ، كان هو يعلم ذلك ، كما كنا نعلمه أيضا] .

وفى نفس الاتجاه جرت تصريحات بن جوريون [إننى أشك فى أن ناصر كان ينوى الدخول فى حرب]. ويتضح الافتراء بأن مصر كات البادئة بالعدوان فى اعتراف موردخاى بنتوف ، أحد أعضاء الوزارة الإسرائيلية عام ١٩٧٢ ، حيث يقول [لقد كانت القصة الكاملة للتهديد بإبادة إسرائيل من نسيج مُخترَع بكاملة ، وتمت المبالغة والتزيد فيها بعد الواقعة (الحرب) لكى نبرر ضم أراض عربية جديدة (إلى إسرائيل)]. ونقيض ذلك على الطرف الآخر فى نيويورك ، حيث أعلن أبا ايبان سفير إسرائيل لدى الأمم فى مجلس الأمن مع بداية الحرب عام ١٩٦٧ [إنه ليس من شك على الإطلاق أن الحكومات العربية كانت تعد وتُهيِّىء بطريقة منتظمة لهجوم عدوانى يستهدف إبادة إسرائيل العاجلة إبادة تامة] . وذلكم هو الصوت الذى ردده اللوبى الصهيونى فى خداعه المتعمد للشعب الأمريكى أثناء الحرب .

● التوسع الإسرائيلى هدفاً للحرب

والخدعة الثانية التى يشير إليها عضو الكونجرس الأمريكى السابق فى ذلك الكتاب هى ماورد فى البرقية السرية رقم ٣٩٢٨ (التى أصبحت علنية بتاريخ ١٣ ديسمبر ١٩٨٢) والمرسلة من قبل ولورث باربور سفير الولايات المتحدة الأمريكية فى تل أبيب إلى وزير الخارجية الأمريكية ، حيث يقول [إن حكومة إسرائيل ليس لديها ـ أكرر ليس لديها ـ أى نية

لانتهاز فرصة الحرب للتوسع فى أراضيها] . هذا تأكيد السفير الأمريكى الرسمى . ومن المعلوم أنه مع نهاية أيام الحرب الإسرائيلية كانت إسرائيل قد احتلت سيناء والجولان والضفة الغربية وقطاع غزة ، كما احتلت جيوشها مدينة القدس القديمة. وبعد نصف ساعة من احتلال القدس .

وصل إلى حائط المبكى شلومو جورين رئيس كهنة الأشكنازى فى القوات الإسرائيلية الغازية ليعلن [أنا ـ الجنرال شلومو جورين ـ رئيس كهنة قوات جيش الدفاع قد عدت إلى هذا المكان ، ولن أتركه أبدا] ونفس المعنى رددته أقوال وزير الدفاع موشى ديان . لقد كان ذلك وعد إسرائيل للسفير الأمريكى بعدم الاستيلاء على أرض جديدة ، إلا أن النتيجة قد انتهت إلى أن تتسع أرض إسرائيل (٥٩٠٠) ميل مربع قبل العدوان لتبلغ (٢٠٨٧٠) ميلاً مربعاً على أثر ذلك الاحتلال الخاطف . . وتلك صورة أخرى يرسمها المؤلف للخداع المتعمد الذى تميزت به علاقات إسرائيل مع الولايات المتحدة الأمريكية، والتى كان عليها أن تباركه وأن تعتمده وتبرره .

● حياد أمريكا فى الحرب

لكن هل الولايات المتحدة الأمريكية كانت (محايدة بالقول والفكر والفعل) كما صرح نائب وزير الخارجية الأمريكى عند بدء الغزو الإسرائيلى ؟ . يشير فندلى إلى أن حكومة الرئيس جونسون ـ رغم انشغالها بمعارك فيتنام ـ كانت حريصة وراغبة ـ بالاتفاق مع إسرائيل ـ على

إسقاط جمال عبد الناصر . وقد أظهرت دراسة الوثائق التى قام بفحصها وليام كوانت ـ الذى كان رئيساً لمجلس الدفاع القومى أيام الرئيس كارتر ـ أظهرت أن [جونسون سعى إلى منع إسرائيل من بدء الحرب فى شهر مايو ، أى أضاء لها الضوء الأحمر ، لكنه تحت ضغوط إسرائيل ، وعزمها المُلِحّ على اتباع سياستها (فى الحرب) ؛ أضاء لها الضوء الأصفر ، مما يعنى أن الرئيس قد وافق على قرار إسرائيل لبدء حرب مباغته] . ويضيف كوانت[إذا لم تكن أمريكا قد أضاءت الضوء الأخضر ، إلا أن الضوء الأصفر كان كافيا لينفذ الإسرائيليون ما اعتزموا عليه ، دون أن يقلقوا من رد الفعل الذى تقوم به واشنطن]

ويشير فندلى إلى دليل آخر على مساندة الحكومة الأمريكية للعدوان ، كما تجلى ذلك فى تعاون المسئولين الأمريكيين مع الإسرائيليين فى الأمم المتحدة أثناء فترة الحرب . [ومن أمثلة ذلك . . ما قام به آرثر جولدبرج سفير أمريكا لدى الأمم المتحدة ، حين استدعى سفير إسرائيل روفائيل جدعون ، وسأله : ماذا تريد منى أن أفعل فى هذا الموقف؟ ، وأجابه جدعون : إن كل ما تطلبه إسرائيل هو إتاحة الوقت لها لكى تكمل قواتها انتصاراتها الرائعة ، قبل أن يُصدر مجلس الأمن قراراً يوقف القتال . ومن أجل ذلك كان على جولدبرج أن يتحاشى مقابلة نظيره السفير السوفيتى نيكولاى فيديرنكو . ونصح جدعون السفير الأمريكى بأن يعلن أنه مشغول ، لا يستطيع مقابلة أحد خلال بضعة أيام قادمة ، فى حين أنه لم يكن كذلك] .

● إغراق سفينة الحرية

وتأتى خدعة اليوم الثامن من الحرب الإسرائيلية ، التى أغرق فى وضح نهاره جيش الدفاع الإسرائيلى سفينة التجسس الحربية الأمريكية ليبرتى (الحرية) بالصواريخ من الجو ، وبالطوربيد من البحر ، فضلاً عن قنابل النابالم . وقد قتل فى المعركة المفاجئة ٣٤ من طاقم السفينة ، كما جرح ١٧١ آخرين . . وكان مرسى السفينة قبالة ساحل سيناء فى منطقة لم يكن بها موقع لأى معارك حربية ،كما سبق الإغارة عليها استطلاع جوى لموقعها استغرق خمس ساعات نصف ، بينما كان العلم الأمريكى الجديد الذى نصبته يرفرف مع نسائم البحر الناعمة .

وقد صرحت الحكومة الإسرائيلية بأن إغراق السفينة لم يكن (نتيجة لإهمال إجرامى، وجاءت الإغارة نتيجة خطأ برىء، وعدم القدرة على التعرف على هوية السفينة) .

وقد قبلت إدارة الرئيس جونسون تفسير إسرائيل وأسفها للحادث ، بل إن جونسون ذاته كان يحاول دائماً تفادى المناقشة فى الموضوع ، وفى كتاب مذكراته [يهون من الحادث الذى لم ينجم عنه إلا قتل عشرة أفراد - حسب تقديره ؛ مما يبين مدى تطابق سياسته مع السياسة الإسرائيلية] .

ويتساءل فندلى عن السبب الذى حدا بإسرائيل إلى إغراق سفينة التجسس فى ذلك اليوم المشهود ، رغم أن وزير الخارجية دين رسك

ورئيس أركان القوات المسلحة الأمريكية الأدميرال توماس مور قد وجها اللوم لإسرائيل ، وشكّا فى نواياها ، و اعتبرا الهجوم عملاً مفجعاً ، لكن الحقيقة لم تظهر إلا فى ٦ نوفمبر ١٩٩١ ، حيث أوضحت أن إغراق السفينة قد سبق يوم الغزو الإسرائيلى لمرتفعات الجولان (٨ يونيو ١٩٦٧) وأنه كان متعمداً ، لأن القيادة الإسرائيلية كانت تخشى من أن ترصد السفينة الاستعدادات الإسرائيلية لذلك الغزو فى اليوم التالى (٩يونيو ٦٧).

وفى ذلك اليوم من نوفمبر كشف الكاتبان الصحفيان المشهوران رولاند إيفانز وروبرت نوفاك النقاب عن وثائق السفارة الأمريكية فى بيروت، التى سجلت أنها التقطت يوم الإغراق إذاعة من طيار إسرائيلى (من الذين هاجموا السفينة) يقول فيها : [إنها سفينة أمريكية ـ يعنى ليبرتى] لكن القيادة الإسرائيلية تجاهلت الرسالة ، وأصدرت أوامرها للطيار لمتابعة هجومه عليها بالصواريخ . ويؤكد الكاتبان أن هدف الإغراق هو [الحيلولة دون أن تتمكن السفينة من التقاط أى رسائل بين المركز الرئيسى لجيش الدفاع الإسرائيلى والوحدات التى كانت تستعد لغزو الجولان فى اليوم التالى . وقد تأكد نصر رسالة الطيار والتعرف على هوية السفينة وأوامر الهجوم عليها من سفير أمريكا فى لبنان إذ ذاك دوايت بورتر . وهكذا لم تتضح حقيقة إغراق إسرائيل لسفينة التجسس، ودوافع ذلك إلا بعد ٢٤ عاماً من الغزو الإسرائيلى للأراضى العربية .

أما بعد ... فتلك بعض الحقائق التى كشف عنها عضو مجلس

النواب الأمريكى السابق فى كتابه . وأود أن أؤكد مرة أخرى أن ما أوردته إنما هو تلخيص صادق - دون إضافات أو تعليقات من جانبى - لمضمون ذلك القسم من الكتاب ... أورده للحقيقة والتاريخ .

المقال التاسع

يشجب بن يعرب *

أؤكد للقارىء ـ بدايةً ـ أن هذا العنوان ليس من صياغتى ، وأنه مهما اتسع خيالى فلست بقادر على أن آتى بمثله . وترسبت الكلمتان فى ذهنى منذ بضعة أشهر ، حين كنت أقرأ مقالاً فى إحدى الصحف أو المجلات ، لاأذكر ماهى ، بل وماهو الموضوع على التحديد ، إذ كنت أسعى إلى أن يغشانى النوم بعد يوم مرهق من السعى فى مناكب مصر المحروسة . وفجأة أيقظتنى الكلمتان ، واتسعت العينان ، واستعذت بالرحيم الرحمن .

كان المقال الذى قرأته عن ترجمة لسيرة إحدى الشخصيات الجليلة من السلف ، واعتمد الكاتب فى مادته على ماورد فى معجم البلدان لياقوت الحموى . وأورد ـ كما هى العادة فى بداية الترجمات ـ سلسلة

(*) مقال نُشر فى عام ١٩٩٥ بمناسبة تنديد وشجب الاعتداءات الإسرائيلية المتكررة مع الشعب الفلسطينى ، رغم ما كان يتم من جهود فى عملية السلام .

أسماء المترجَم له ، وكانت سلسلة طويلة ، انتهى فيها نَسَبُهُ إلى (يشجب بن يعرب) . وأخذ الفكر يقلب فى موقع كلمة (يشجب) أهى اسم أم فعل أم صفة ، وهل لصيغة الفعل حسب منطق اللغة المألوف (يشجب) ماله من دلالات ومعان كما نفهمها اليوم . وعلى أية حال . . فلا يُعد نسب شيخنا الجليل ـ رحمة الله عليه ـ مسئولاً عما يثيره فعل الشجب فى تاريخنا المعاصر من معان مثيرة ومريرة فى عقل كل من ينتمى إلى بنى يعرب من المحيط إلى الخليج .

وتداعت الخواطر ـ كما اعتقد أنها تتداعى عند أى مواطن عربى ـ وهى تتذكر أن (يشجب) من أكثر الكلمات تواتراً وتكراراً فى قاموسنا السياسى ، وفى خطابنا الرسمى. والمستعرض للمواقف التى توظف فيها تلك الكلمة يدرك أنها تستخدم فى تصريحات لمواجهة أحداث أو سياسات أو اعتداءات تتنافى مع مصالحنا ، أو تهدد أمننا القومى أو تعتدى على حقوقنا ، أو على حقوق أشقائنا أو أصدقائنا من الأقطار الأخرى . ومن المنطقى أن يتبع (الشجب) بالقلم واللسان ، نوعاً من الفعل الذى يحول القول اللفظى إلى عمل إيجابى فاعل ومؤثر فى حركة مضادة لتصحيح الأوضاع ، وصد العدوان ، وردّ الحقوق بوسائل العمل وآلياته المتكافئة مع الاعتداء المرتكب ... فهل يصدق علينا قوله تعالى : ﴿ ياأيها الذين آمنوا لِمَ تقولون مالا تفعلون . كَبُرَ مقتاً عند الله أن تقولوا مالا تفعلون ﴾ .

إن هذا التعبير الفاتر فى مواجهة الحقوق المسلوبة قد غدا ضعيفا متردداً باهتا ومترهلا .

هل الشجب استجابة العاجز ؟ هذا صحيح . ولعله من المفيد فى هذا الصدد أن يقوم أحد المشتغلين بالعلوم السياسية بإحصاء آلاف المرات التى ترددت فيها أصداء الشجب لاعتداءات إسرائيل ، وتحديها لقرارات الأمم المتحدة ، وعدوانها على الأرض والبشر .

وقد تم توظيف الشجب أحيانا من قبيل إبراء الذمة والمجاملة ، قياماً بالواجب فى المناسبات ، وخوفاً من الملامة والعتاب فى استنكار ما تقوم به إسرائيل يوماً بعد يوم من غارات مدمرة للقرى ، وقتل وترويع للسكان فى جنوب لبنان . وقتل جندى إسرائيلى واحد تطغى أخباره على الفظائع الجماعية التى ترتكب فى حق اللبنانيين . ويشجب بن يعرب أحياناً مجاراة للركب المتحضر من قبيل إظهار المشاعر الإنسانية إزاء المذابح والتجويع لأهل البوسنة على يد الصرب ، ولا بأس من شجب الحروب الأهلية فى رواندا والكونغو وأنجولا ، وهى أقطار لا يستطيع بن يعرب أن يتخذ فيها أكثر من أن يشجب لبعد المسافة ، ولتعقد الموقف ، والالتزام بقررات الأمم المتحدة . وإذا كان من المشاجبين إزاء معاناة أهل القرابة والقربى ، فلا ينتظر منه أكثر من مجاملات الشجب مع الأبعدين .

وقد انكشف لنا فى أخريات العام المنصرم أن ابن يعرب كان يشجب من قبيل التزييف والتمويه والخداع لجماهير هذه الأمة . يصيح بالشجب المتوتر ويفعل النقيض التام فى زاوية قدرها ١٨٠ درجة . وآية

ذلك ماسمعناه وقرأناه من تصريحات بعض القادة من بنى
الذين شجبوا وشجبوا وأشبعونا شجبا لبنى إسرائيل ، ثم تبين أ
على صلات ودية متصلة فى نفس الوقت . وتزداد مرارة الحل
سمعناهم يتباهون بأن تلك الصلات لم تنقطع ، فقد امتدر
الثمانية عشرة سنة الماضية ، أى منذ عدوان عام ١٩٦٧ . و
شعوب يخدعها قادتها ، ويعلنون ذلك تحت شعار أنهم دعاة سـ
فى جوهره سلام أمريكى ، كما يقول إدوارد سعيد ، سلام لا تقابل
وما استرد من حفنة من التراب المحتل ما تزال مليئة بالأشوا
بالألغام . وقد اتخذ البعض من هذه الحفنة الأسيرةمن التراب
ذريعة شرعية للسكوت ، حتى عن مجرد الصياح فى أبواق الن
وتتوالى الهرولات حاملة زهور المحبة ، من خلال الزيارات و
والصفقات .

وإنا لمنتظرون فى تفاؤل مستمد من ليلة الإسراء والمعراج التى
هذه السطور ، ونحو سعى جاد لتحرير القدس الشريف ،
الأقصى الذى أُسْرِى إليه محمد ﷺ ، والذى هو أولى القبلتين
الحرمين . وفى سبيل ذلك التحزير لن ينفع الشجب ، و
الخداع ، وسوف يكون الحساب فى الدنيا والآخرة عسيرا .

المقال العاشر

القدس بين الأرض المحتلة والعاصمة الأبدية *

قرأت فى إحدى الصحف الأجنبية تعليقاً على مفاوضات السلام العربية الإسرائيلية ، مؤداه أن قضية القدس تمثل الاختبار النهائى الحاسم والحاكم لمسيرة السلام فى أرض السلام . وهى كذلك مع قضية المستعمرات والانسحاب من كافة الأراضى العربية المحتلة ، حسبما جاء فى قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ وما تلاه من قرارات . ومنذ خطة تقسيم فلسطين بين العرب واليهود ، التى أقرها مجلس الأمن عام ١٩٤٧ ، معتبراً أن للقدس وضعاً خاصاً ، ثارت شكوك المجتمع الدولى حول أطماع الصهيونية فى تلك المدينة ، حتى إن مجلس الأمن إذ ذاك لم يقبل عضوية إسرائيل فى الأمم المتحدة إلا بعد تقديم طلب العضوية للمرة الثالثة ، بعد أن تعهدت بقبول وضع المدينة الخاص ، وذلك بتاريخ ١١ مايو ١٩٤٩ .

(*) مقال نُشر فى أوائل ١٩٩٥ حول أهمية القدس فى قلب مفاوضات السلام .

ولم تمض سبعة أشهر على قبول ذلك الوضع للمدينة المقدسة ، حتى علت صيحات دافيد بن جوريون تعلن فى تصريح له بتاريخ ٥ ديسمبر من ذلك العام بأن [القدس هى قلب إسرائيل . ولا أتصور أن منظمة الأمم المتحدة سوف تسعى إلى نزعها من دولة إسرائيل ، وحرمانها من عاصمتها الأبدية]. فى ١٦ ديسمبر من نفس العام ، تحدى بن جوريون قرار الأمم المتحدة ناكثا بتعهده ، لينقل مقر رئاسة الوزارة الإسرائيلية إلى القدس . كما أعلن أن بداية عام ١٩٥٠ سوف تكون تاريخ انتقال كل المؤسسات الحكومية إلى القدس ، باستثناء وزارتى الخارجية ، والدفاع، والمقر الرئيسى للشرطة . ولم تأبه إسرائيل لقرار مجلس الوصاية للأمم المتحدة رقم ٢٢٥٤ الصادر فى ٢٠ ديسمبر ١٩٤٩ بمخالفة تلك الإجراءات لالتزامات إسرائيل السابقة ، بل إنها أحاطت المجلس بعد عشرة أيام من قراره بتاريخ ٣١ ديسمبر بأنها لن تنقل مؤسساتها الحكومية من القدس .

وقد نجحت تحديات إسرائيل للمجتمع الدولى منذ ذلك التاريخ ، وظلت تتعامل معه ، كما لو كانت القدس عاصمتها الشرعية . وتأتى حرب ١٩٦٧ وما ترتب على نهايتها من إصدار قرار ٢٤٢ الذى أكد فى ديباجته على عدم السماح للاستيلاء على الأرض عن طريق الحرب ، كما طالبت فقراته إسرائيل بالانسحاب دون شروط من الأراضى التى احتلتها فى ذلك الوقت . وتماطل إسرائيل وتفرض تفسيراتها على مضمون ذلك القرار ، وعلى المقصود بالأراضى المحتلة. وفى صخب تلك المناورات

الإسرائيلية تأتى تصريحات متعددة من الإدارة الأمريكية ومن غيرها من دول العالم ، بأن المقصود هو الانسحاب من الأراضى المحتلة فى الضفة (بما فيها القدس الشرقية) وقطاع غزة وسيناء والجولان . ومن بين أهم تلك التفسيرات لمضمون ذلك القرار ، ما أوضحه اللورد كارادون سفير بريطانيا لدى الأمم المتحدة ، وهو كما يقال مؤلف ذلك القرار وصائغه [إن اختبار القرار يتمثل فى تحديد الأراضى التى احتلت . . لكن هذا الاختبار لا ينبغى بأى حال أن يكون موضع شك . إن الأمر الواقع بوضوح هو أن الأراضى التى احتلت عام ١٩٦٧ هى القدس الشرقية ، والضفة الغربية ، وغزة ، والجولان ، وسيناء، والقرار يؤكد على الانسحاب من أراض محتلة] . وقد ساندت تصريحات الإدارة الأمريكية ذلك المضمون للأراضى المحتلة ، بما فيها القدس ـ بدرجات متفاوتة من الوضوح والحسم ـ حتى نهاية عهد الرئيس بوش . وتم تأكيد مضمون القرار فى توضيحات عدة للملوك الرؤساء العرب ، ومن أهمها خطاب شولتز وزير الخارجية فى عهد الرئيس ريجان إلى العاهل الأردنى فى يناير ١٩٨٣ يؤكد فيه مضمون الانسحاب على الجبهات الثلاث أن [القدس الشرقية جزء من الأراضى المحتلة] .

وفى مناورات التفسيرات التى ما تزال تصطنعها إسرائيل حول الانسحاب من الأراضى المحتلة، أو من (أراضٍ محتلة) ، لم يتردد أبا ايبان وزير خارجيتها أن يعلن عام ١٩٦٧ ذاته من قبيل المراوغة [إن ضم (القدس الشرقية) ليس تعبيراً صحيحا ، وإن ما اتخذ من ترتيبات

إنها يرتبط بالتكامل فى الإجراءات الإدارية والبلدية ، مما يؤدى إلى إيجاد قاعدة قانونية لحماية الأماكن المقدسة فى القدس]. وتتضمن تلك الإجراءات التوسع فى حدود بلدية المدينة الإدارية ، وفى طرد أعداد كبيرة من السكان العرب فى القدس القديمة (الشرقية) . وحسبما ورد فى الشهادات المدونة فى وثائق الأمم المتحدة، فإن إسرائيل [فى العتمة التى سبقت فجر ١١ يونيو (١٩٦٧) ، وبعد توقف القتال مباشرة ، زحفت القوات الإسرائيلية إلى حى المغاربة فى مدينة القدس القديمة غربى الحرم الشريف ، وأعطت الفلسطينيين المقيمين هناك إنذاراً لمدة ثلاث ساعات لإخلاء بيوتهم ، وبعدها قامت البلدوزرات الإسرائيلية بدك البيوت ، ومن بينها مسجدان ، تاركة ١٣٥ أسرة أى ٦٥٠ رجلا وأمراة وطفلاً دون مأوى . وكان ذلك هو الأسلوب الصهيونى لإفساح الطريق إلى حائط المبكى ، كما كان أول عمل من أعمال المصادرة للممتلكات الفلسطينية ، التى استمرت بعد ذلك لتشمل أكثر من ٥٠ فى المائة من الأراضى المحتلة فى الضفة والقطاع .

ولم يمض أسبوع على تلك الجريمة، حتى بدأت أوامر الاحتلال العسكرى فى ١٨ يونيو ١٩٦٧ بإجبار الفلسطينيين على ترك ديارهم فى الحى اليهودى فى المدينة القديمة ، وقد تم فعلا إجلاء حوالى (٦٥٠٠)من الفلسطينيين ليفسحوا المجال لإقامة اليهود . وتتسارع الأحداث نحو تهويد القدس القديمة ، فيصدر الكنيست فى ٢٧ يونيو ١٩٦٧ قانونين، أحدهما للتنظيمات الإدارية، والآخر للتنظيمات البلدية

(والتى أشار إليهما أبا إيبان فيما سبق) . وقد خول هذان القانونان لوزير الداخلية توسيع نطاق بلدية القدس وحدودها، وتطبيق القانون الإسرائيلى على كافة مناطق تلك البلدية الموسعة . ولم يتوان وزير الداخلية فى أداء مهماته ، وبعد يوم من صدور القانونين (٢٨ يونيو) قام بتوسيع حدود القدس إلى تسعة أميال شمالاً ، وعشرة أميال جنوباً ، بحيث تضاعفت مساحتها ، واتسع نطاق البلدية من مساحة (٤٠) كيلو متراً مربعا قبل ذلك التاريخ إلى (١٠٠) كيلو متر مربع .

واستهدف هذا التوسع والطرد للفلسطينيين أن تصبح بلدية القدس الكبرى ذات أغلبية من السكان اليهود ، متفاديا فى امتداده تلك القرى المكتظة بالسكان العرب ، فى الوقت الذى تضم الخريطة الأراضى الخالية من السكان المتاخمة لها . وكانت النتيجة أن أصبح عدد السكان اليهود فى القدس الكبرى حاليا (١٩٧) ألف من اليهود ، و(٦٨) ألف من العرب . وأصبح اليهود فى نطاق القدس القديمة (١٠٠) ألف، والعرب (٦٠) ألف . وهكذا بادرت إسرائيل - وبأقصى سرعة ممكنة - بتهويد القدس الكبرى والقديمة بوجه خاص، واستمر ضمها وربطها بالشطر الآخر المحتل قبل عام ١٩٦٧ . وقد أصدرت الجمعية العامة للأمم المتحدة منذ ٤ يوليو ١٩٦٧ مجموعة من القرارات تدين فيها إجراءات إسرائيل لتغيير وضع القدس، وطالبتها بالرجوع عن ذلك . كذلك أصدر مجلس الأمن قرارات عدة ، منها قرار (٢٥٠) بتاريخ ٢٧ إبريل ١٩٦٨ يطالب إسرائيل بالامتناع عن تنظيم أى عرض عسكرى فى

القدس ، وقرار (٢٥٢) بتاريخ ٢١ مايو ١٩٦٨ يعلن فيه أن إجراءات إسرائيل لتوحيد القدس كعاصمة يهودية غير صحيحة ، وقرارات أخرى فى أعوام ٦٩ ، ٧٠ , ٧١ تشجب محاولات إسرائيل لتغيير وضع القدس .

بيد أن إسرائيل قد تحدت كل تلك القرارات ، وانتهى ذلك التحدى للمجتمع الدولى فى ٣٠ يوليو ١٩٨٠ حين أصدر الكنيست ماعرف باسم القانون الأساسى الذى قرر ضم القدس بشطريها ، ومعلناً أن [القدس الموحدة بكليتها هى عاصمة إسرائيل]. ويبلغ التحدى ذروته حين نعلم أن صدور هذا القانون قد جاء بعد يوم واحد من قرار للجمعية العامة للأمم المتحدة ، تم أخذ الأصوات فيه بالموافقة على إقامة الدولة الفلسطينية ، ومطالبة إسرائيل بالانسحاب من كافة الأراضى المحتلة ، بما فى ذلك القدس الشرقية . ويصدر مجلس الأمن قراره رقم (٤٧٨) بتاريخ ٢٠ أغسطس ١٩٨٠ يشجب بأقوى عبارة ادعاءات إسرائيل حول القدس كما وردت فى القانون الأساسى .

لكن كل قررات المجتمع الدولى لم تبعث أى قلق أو مخاوف لدى إسرائيل ، بل جاء رد فعلها متحديا ومؤكداً شرعية ماتقوم به من تهويد وضم ، ثم إعلان للقدس الموحدة عاصمة أبدية لإسرائيل . واستمر التمادى والتحدى بعد الصلح مع مصر بضم مرتفعات الجولان إلى إسرائيل فى ١٤ ديسمبر ١٩٨١ ، بعدها بأشهر ستة بدأت هجومها على لبنان فى ٦ يونيه ١٩٨٢ ، أخذاً بثأر سفير إسرائيل فى بريطانيا شولومو أجروف الذى أصيب بطلق نارى فى لندن من أحد أنصار أبو نضال ،

لكن مناحيم بيجن أراد بغزو لبنان أن يؤدب الفلسطينيين ، لأنهم بالنسبة له جميعا إرهابيون . وبعد ذلك الغزو أضافت إسرائيل إلى ماكانت تحتله من أرض لبنان وما أسمته (الحزام الأمن) منذ عام ١٩٧٨، بحيث بلغ ما تحتله فى تلك المنطقة الحدودية الجنوبية مايقدر بحوالى ٩ فى المائة من مساحة الدولة اللبنانية .

وهكذا نجحت إسرائيل فى توسيع أراضيها مرة أخرى بعد معاهدة الصلح مع مصر، لتحقق حلم إسرائيل الكبرى ،وعاصمتها الأبدية القدس الموحدة .

تلك هى أنواع الخدع والتحديات التى استطاعت بها إسرائيل أن تحتل القدس، وأن تعلن أنها بشطريها عاصمة لها ، وتلك هى المعطيات التاريخية التى وثَّقها بول فندلى عضو الكونجرس الأمريكى سابقا فى كتابه الجديد (الخدع المتعمدة - فى مواجهة الحقائق حول العلاقات بين الولايات المتحدة وإسرائيل) والصادر عام ١٩٩٣ . نوردها فى هذا المقال للتدبر فى قضية السلام فى مقبل الأيام .

المقال الحادى عشر

إلاّ التعليم يا بيريز !!

علمتا التجارب الداكنة والأحداث الفاجعة أن التعامل مع اسرائيل وقادتها يدفعنا إلى الالتزام بالمثل العربى القائل (حسن الظن وَرْطَة ، وسوء الظن عِصمة) تذكرت هذه المقولة بعد قراءتى لماورد فى مقال نُشِرَ فى أوائل عام ١٩٩٥ من أنه فى لقاء القمة الرباعى فى طابا طرح شيمون بيريز خطة (تتضمن التوصل إلى عمل برنامج تعليم موحد للشرق الأوسط ، يتم تجهيزه بالكامل بواسطة الكمبيوتر ، وتحت إشراف إسرائيل !!) . ومع ما أصابنى من ذهول من جراء مثل هذا الخبر ، إلا أننى رأيت أن ما اعترى الخبر من اقتضاب وغموض جعلنى لاأصرف مزيداً من الانشغال به ، حتى تتضح بعض معالمه .

ثم تجىء مجلة (روز اليوسف) بتاريخ ١٣/ ٢/ ١٩٩٥ ، أى بعد

---

* مقال نشر فى أوائل ١٩٩٥ ، بمناسبة محاولة بيريز للحديث عن برنامج موحد للتعليم ، عن طريق برامج الحاسوب .

أسبوع من نشر تلك المقالة فى الصحف ، فتنشر فى صفحتها الأولى ملخصاً عن (تقرير للسفير المصرى فى تل أبيب) يورد فيه سيادته (أن صحيفة دافار أشارت إلى لقاء الوزيرين عمرو موسى وشيمون بيريز مع أربعة من كبار المسئولين الذين يمثلون أكبر أربع شركات للكمبيوتر فى أوربا لبحث فكرة بيريز. بشأن توسيع استخدام برامج الكمبيوتر فى جهاز التعليم فى الشرق الأوسط. وأضافت الصحيفة « الإسرائيلية » أن الوزير عمرو موسى أبدى اهتمام مصر الشديد بذلك . وتم الاتفاق على معاودة اللقاء بين الأطراف الستة فى شهر فبراير ...) .

ومع إدراكنا لما قد تفرضه الديبلوماسية من مجاملات ، ولما قد تحمله إمكانات الكمبيوتر من مردود على فاعلية العملية التعليمية، إلا أن انطلاق المبادرة والمبادأة من قيادة إسرائيلية يثير فى نفسى كثيرا من التوجس والريب والشكوك . وبكل سذاجة المواطن العادى، يضطرب عقلى ووجدانى بالتحذير من أنه قد يكون وراء الكمبيوتر ماوراؤه . وكمعلم لا ينكر دور الكمبيوتر فى مهنته ، إلا أن ذلك المشروع مع ما يحمله من قضية حق ، يُخشى عليه كذلك من أن يتلبسه الباطل . وقد امتدت خشيتى إلى الظن بأننا على عتبات سوق شرق أوسطية للتعليم تحت دعاوى التعاون الإقليمى فى مجال التطوير التكنولوجى للتعليم فى مصر، وفى غيرها من الأقطار العربية بقيادة إسرائيل ومعاونيها من الشركات المتعدية الجنسية .

لقد علمتنا التجارب الداكنة والأحداث الفاجعة أن إسرائيل تطرح

أحلامها فى التوسع والهيمنة على امتداد الساحة من النيل إلى الفرات، وتنتقل بها من مستوى المناورة والخداع والتمويه والتزييف، وغير ذلك مما يشعر « بالتمسكن حتى التمكن » كما يقال، حتى يبلغ مرحلة العدوان والاحتلال للأرض والقتل والتعذيب والاضطهاد وممارسة كل صور الاستعلاء والحقد العنصرى. بالمخادعة والغدر تحقق حلم هرتزل من خلال وعد بلفور، وهجرة اليهود المكثفة إلى أرض فلسطين، تحت الزعم بأنها وطن بلا شعب، تبريراً لاغتصابها، حتى تصبح لبنى إسرائيل، وهُم شعب بلا وطن. وادعت إسرائيل أنها تريد السلام مع جيرانها، لكنهم هم الرافضون. ولما قبلوا الدخول فى عملية السلام، انقلبت من التمسكن إلى التمكن، ومن شروط الأرض مقابل السلام، إلى الضغط للتفاوض بشروطها لضمان أمن إسرائيل أولاً وأخيراً، حتى لو اقتضى الأمر التهديد بالحرب.

ثم ألم تكن السوق الشرق أوسطية حلماً من أحلام بيريز كما ورد فى كتابه عن الشرق الأوسط الجديد، وقد وقعت أعيننا على هذا الحلم أول ما وقعت فى سطور بأحد الصحف القومية من أجل أرض مصر الخضراء. وبالمناورة والخديعة والتزييف ووسط صيحات المؤيدين والمحذرين يتعالى هدير السوق، حتى نواجهها حقيقة عالمية فى الدار البيضاء وفى دافوس بسويسرا، وسوف تستوى موجاً متعاظماً فى اجتماعات الأردن وقطر وغيرها وغيرها، فقد حدث « التمكن » فى غفلة المشاركين من ضحايا العرب ممن يخشى عليهم من الغرق.

وهل يتذكر السيد بيريز مفاعل إنتاج السلاح النووى فى ديمونا بصحراء النقب وعلى مقربة من حدودنا . لقد زعمتم من قبيل التمويه والخداع خلال الخمسينيات أنه لا يوجد مفاعل نووى ، وإنما هو مصنع للنسيج تارة ،ومحطة لضخ المياه تارة أخرى. ولما ازدادت درجة « التمكن» أعلنتم فى أوائل الستينيات أنه مفاعل نووى لأغراض الصناعة والزراعة والبحث العلمى . ولما بلغ « التمكن» مرحلة أقوى ؛ أخفيتم ما كنتم تقومون به من تجارب لإنتاج القنابل اليدوية الصغيرة ، زاعمين بأنكم لن تكونوا أول دولة تنتج السلاح النووى فى المنطقة ، ورفضتم التوقيع على معاهدة حظر انتشار الأسلحة النووية . ثم لم يمض يوم على لقائكم بالرئيس السادات من أجل دعم السلام فى المنطقة عام ١٩٧٩حتى أغارت طائراتكم على المفاعل النووى العراقى ، ولديكم اليوم ترسانة نووية يزيد عدد رؤوسها عن ٣٠٠ .

وما تزالون حتى اليوم ، وقد أصبح لديكم مخزون من الرؤوس النووية والصواريخ الحاملة لها إلى مئات الأميال ترفضون الانضمام إلى المعاهدة الدولية لحظر انتشار الأسلحة النووية ، ولا تبالون بدعوة مصر ورئيسها إلى جعل المنطقة آمنة منزوعة من كل أسلحة الدمار الشامل . ولكم فى ذلك حجج لا نهاية لها تبتدعونها كلما وجدتم أنفسكم فى مأزق الاعتداء على القانون والمعاهدات والأعراف الدولية ، ووصل بكم الأمر إلى الادعاء بالتخوف من إيران التى تتهيأ لكى تصبح قوة نووية ... هل ينطلى كل ذلك على أحد، بل ولا حتى عليكم ، وإنما هو نهاية الطغيان والصلف والتمكن بعد مراحل التمويه والخداع والتمسكن .

وأتساءل : هل قضية استخدام الكمبيوتر من خلال خطة موحدة للتعليم فى الشرق الأوسط واحدة من الخدع التى تحاول بها إسرائيل أن تخترق نظام تعليمنا ؟ . إن الكمبيوتر ليس مجرد جهاز، وإنما هو فى الوقت ذاته برامج تحمل مضامين معرفية فى مجال الاقتصاد والسياسة والاجتماع والقيم والتوجهات والرؤى نحو الحاضر والمستقبل . ويا ويلنا لو تم اختراق هذه الجبهة من خلال الأسلوب الصهيونى ، بدءا من التمسكن حتى التمكن . ونحن نعتز بما يبذل من جهود فى تطوير نظامنا التعليمى ، لكى يصبح سلاحاً من أسلحة أمننا القومى ، دفاعاً عن هويتنا الحضارية العربية الإسلامية ، وضمانا لتماسكنا الوطنى ، وانطلاقاً نحو الإسهام فى توفير النماء والرخاء لمصر بشراً وموارد .

ومهما كان مصير عملية السلام الذى لن يتحقق إلا إذا كان عادلاً أولاً ، وشاملاً ثانيا ، فإنه لمما يستحق التنبه إليه هو أن الصهيونية عقيدة تتصارع مضمونا ووسائل مع عقيدتنا الحضارية وهويتنا القومية الإنسانية . وتختزل العقيدة الصهيونية فى مقولات مؤسسها هرتزل الذى كان يؤكد شعار (القوة فوق الحق) كما يؤكد شعار (السلام المسلح) وإلى أن التآخى بين البشر ضرب من المستحيل ، وإلى أن (الإنسان الذى يخترع مادة شديدة الانفجار يعمل لأجل السلام أكثر من ألف داعية إلى اللطف والرفق واللين)، وهو صاحب نظرية (التنكر البيئى)، حيث يمكن للصهيونية الانتقال إلى أرض الميعاد ، ثم عليها أن تحرص على البقاء فيها ريثما تتحول (الزعانف إلى أرجل حقيقية) ، أى كما أشرنا فى مطلع هذا المقال الانتقال من (التمسكن إلى التمكن) .

وتتواصل العقيدة الصهيونية العدوانية لنسمع إسحق شامير يقول : (فلنلتفت إلى معتقداتنا نحن ، حيث لا الأخلاق ولا التقاليد اليهودية تنبذان الإرهاب ، بوصفه وسيلة قتالية فى مجرى الصراع ، ولذا فنحن بعيدون كل البعد عن تأنيب الضمير إزاء استخدامنا وسائل الإرهاب .. وقد جاء فى التوراة : «امحقوهم عن آخرهم ، وأبيدوا حرثهم ونسلهم ... ») ثم يطلبون منا مكافحة الإرهاب ، وهم يمارسون أبشع صور الإرهاب ، وهو إرهاب الدولة ، ثم أليس رابين هو مبتدع سياسة تكسير العظام ، والمتشدد فى تطبيق سياسة الطرد الجماعى ، وإغلاق الضفة والقطاع لأسابيع وشهور لتجويع أهلها .

والخلاصة أن أزمتنا مع إسرائيل ليست مقتصرة على إنهاء الاحتلال وتحرير الأرض، وإنما فى نوعية الثقافة العنصرية العدوانية المستعلية لشعب الله المختار . وهنا يتعدى الصراع مجال الحدود ليدخل فى مجال الوجود وإمكانية التفاعل الإنسانى المثمر بين الثقافتين . ولن يتحقق ذلك بيننا وبينهم حتى تتخلى إسرائيل نهائياً عن ثقافتها العدوانية المستعلية، والتى لا تعرف إلا السلام المسلح الذى يقوم على التهديد والوعيد والتأديب للغير من الجيران العرب .

ونعود إلى البرنامج الموحد للتعليم الذى يطرحه بيريز، ونتساءل : أى مضمون ثقافى ينقله ، وأى قيم يبشربها ، وأى تفاعل حضارى يدعو إليه ؟ . وإدراكا منا لطبيعة العقيدة الصهيونية السائدة لا بديل أمامنا إلا

التوجس والتحسب لكل دعوة تصدر من قياداتها ، حين تحاول اختراق نظامنا التعليمى تحت أية دعاوى، ظاهرها التحديث، وباطنها احتمالات التلويث لنسيج حضارتنا ومعالمه، وقيمنا وخصوصياتها العربية .

ولا بد لنا من الإشادة هنا بأن جبهة النظام التعليمى ما تزال بمنأى عن الاختراقات الصهيونية التى تعرضت لها بعض القطاعات الأخرى ، فلم تحدث حتى الآن اتصالات أو مشاورات رسمية أو غير رسمية مع قياداتنا التعليمية ، ولم يحدث تبادل للزيارات أو الخبرات بين المسئولين فى مؤسسات التعليم العام أو الجامعى . ويظل الجسم التعليمى حريصاً فى الحفاظ على مناعته ، وعلى قدرته فى التعاون والإفادة من الخبرات والتكنولوجيات المتقدمة من مصادرها العالمية الرئيسية فى الدول الأصلية المنتجة لها سواء فى الغرب ، أَمْ فى الشرق الآسيوى ، كلما اقتضى الأمر ، وفى ضوء اختياراتنا والثقة المتبادلة بيننا وبينهم ، وعلى أساس من سياساتنا التعليمية التى تسعى لتحقيق حرية الوطن وانتماء المواطن . ولا شك أن لنقابة المعلمين دورها الخطير فى تعزيز مقومات المناعة ضد عوامل التلويث لثقافة معلمينا ، أيًّا كان مصدرها .

وستظل مناهجنا تؤكد على خصوصية حضارتنا العربية الإسلامية ، على أهمية التعاون والتكامل التعليمى والثقافى بين أقطار الوطن العربى ، رغم كل الصعوبات والأزمات ، وعلى الإيمان بأن السلام الذى تحقق فى مصر إنما يكلمه ويدعم السلام العادل والشامل المتمثل فى تحرير الأرض

العربية كلها ، انطلاقاً من أن الأمن القومى العربى لا يتجزأ ، ولا ينبغى أن يتعرض للتهديد من أية قوة تمتلك سلاحا نوويا ينجم عن التخويف به تعويق مسيرة التقدم والنماء فى تعليم أبنائنا وبناتنا كما نختار

وأخيرا نكرر القول ... إلا فى التعليم يا بيريز ، وغير بيريز .

المقال الثانى عشر

للاختراق حدود « وللصهينة » حدود *

اكتب هذه الأسطر العجلى بعد أن استمعت فى أحد أيام الأسبوع الماضى إلى حديث الصباح الدينى فى الإذاعة البريطانية (باللغة الإنجليزية) BBC ، والذى ألقاه واحد من أقطاب رجال الدين اليهود فى اسكتلنده. ولقد فجعنى ما انتهى إلى أذنى ، لكن بعد قليل من التدبر اتسق ما سمعته مع ما عرفته وعرفناه جميعا عن الأيديولوجية الصهيونية لشعب الله المختار . وإذا كانت الأمم المتحدة تعسفاً قد غفرت لها خطاياها العنصرية التى استحقتها عندما ساوت بين الصهيونية والعنصرية زهاء ثمانية عشر عاماً، إلا أن الصهاينة ـ كما تجلى فى ذلك الحديث ـ لا يغفرون شيئا، ولاينسون شيئا !! فماذا تضمن حديث ذلك الحاخام الإسكتلندى ؟ .

(*) مقال نشر فى أواخر عام ١٩٩٥ بمناسبة المخاطر المترتبة على محاولات إسرائيل اختراق حاجز عدم التطبيع الذى أقامه الشعب المصرى .

كان حديثه يدور حول مالاقاه اليهود من اضطهاد فى أوروبا ، وبخاصة فى ألمانيا النازية ، مما عرف باسم الهولوكوست . وكان ذلك الرجل يُذكِّر بتلك المناسبة ، ويؤكد لنا أن اليهود فى معالجتهم لتلك الأحداث لا ينسون شيئاً ولا يغفرون شيئاً ، وإنما الله هو الذى يغفر . والنص الإنجليزى ـ كما أتذكره ـ يستحق الإيراد بلغته

Towards such events, we do not forget ; we also do not forgive. It's only God who forgives .

وإذا كنا نؤمن كذلك بأن الله فى نهاية المطاف هو غافر الذنب وقابل التوب ، إلا أنه أرسى من بين أهم القيم السماوية التى ينبغى أن يمارسها البشر قيمة التسامح والصفح والمسيحية كدين تسامح واحسان تتجلى فى موعظتها الشهيرة أنه من ضربك على خدك الأيسر فأدر له خدك الأيمن . وفى الإسلام دين السماحة والمغفرة والعفو تتأكد تلك القيم فى كثير من آيات القرآن البينات . يقول تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه : «فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر » . ويقول جل شأنه فى موضع آخر « فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين » ، ويصف الأتقياء من المؤمنين بأنهم « الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين» . ثم استمع إلى قوله تعالى : ﴿ قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى﴾ .

تلك هى بعض آيات الذكر الحكيم التى تبرز قيمة العفو والمغفرة والتسامح التى أوصى بها الله نبيه ، والتى أوجبها على عباده المؤمنين . وهذه هى القيم التى نواجه بها اليهود فى إسرائيل إذا ما رحلوا عن الأراضى العربية المحتلة ، وأرادوا أن يعم السلام القائم على العدل والاحترام المتبادل .

أما أن الأيديولوجية الصهيونية لا تنسى ، فإنها فى الواقع لا تريد أن تنسى ، لأن النسيان من خصائص الذاكرة الإنسانية ، لكن الصهاينة يجعلون مما وقع عليهم من اضطهاد فى أوربا من الزعم بأن بقاءهم وأمنهم مهدد فى وسط وطننا العربى ، ممارسة يومية ، لا فى إسرائيل وحدها ، بل فى كل مكان يوجد فيه يهودى على ظهر هذا الكوكب . وهم بذلك يحافظون على ذاتهم العنصرية الضيقة ، كما يسعون إلى استدرار العطف والتأييد والابتزاز والحصول على المعونات ، وغير ذلك من المنافع التى قد يجلبها هذا التذكير .

يقول الحاخام الإسكتلندى : إن الصهاينة لا ينسون ولا يتسامحون . ويذكرنى ذلك بأسرة البوربون الملكية فى فرنسا التى أنهت الثورة حكمها المستبد ، لأنها لم تنس شيئاً ، ولم تتعلم شيئاً جديداً ، بل ظلت متمسكة بمصالحها وامتيازاتها واستعبادها ، رغم ما طرأ على الأوضاع المجتمعين فى فرنسا إذ ذاك من متغيرات ... لاشك أيها القارىء أنك قد أدركت العلاقة بين ما قاله ذلك الحاخام وبين متطلقات شامير وغيره من الصهاينة السابقين (واحتمال اللاحقين) من أنهم لن ينسوا ذكريات

اضطهادهم، وأن إسرائيل الكبرى هى أرض ميعادهم ، وأنهم لن يجلوا عن شبر واحد من الأرض المحتلة (بل المحررة فى اعتبارهم، وأنهم لن يتسامحوا مع منطقة التحرير الفلسطينية، ولا مع غيرها من العرب الذين يطالبون بالجلاء عن أرض العرب ، وبإعطاء الشعب الفلسطينى حقه فى تقرير مصيره وإقامة دولته المستقلة ، وذلك رغم كل المتغيرات الفلسطينية والعربية والدولية ... بل أكثر من هذا ... فإن إسرائيل قد استغلت سلامها مع مصر لتحوله إلى نقطة ارتكاز لتحقيق مصالحها السياسية والاقتصادية . ولا شك أننا على وعى بما تسعى إلى اختراقه من جبهات الحصانة المصرية الاقتصادية والحضارية لتفرض قدراً من نفوذها وسيطرتها وقيمها عليه . وهذا هو ما تلح عليه بكل ضغوطها وحيلها فيما تنشده مما يسمى بتطبيق سياسة التطبيع . وقد كان لهذه المحاولات فى التطبيع والاختراق نتائج سلبية على مجمل الأوضاع العربية ، بل وعلى أوضاع المجتمع المصرى ذاته مما هو معروف ، رغم ما أشاد به بعض الكتاب من تعلمنا لكثير من فنون الزراعة والرى من خبراء إسرائيل !! .

وإذا كان ثمة « صهينة » من الدولة المجتمع فى مصر عن كثير من مخاطر تطبيع العلاقات مع إسرائيل ، فإن بعض الأحداث الجارية تفرض علينا ألا ندع الأمور تتجاوز الخط الأحمر فى مجالين رئيسيين ، هما مجال امتلاك إسرائيل للصناعة فى مصر ، سواء عن طريق المساهمة فى شراء القطاع العام، كما تتواتر الأنباء حول هذا الخطر ، بل وحتى من

خلال استثمارات إسرائيلية فى صناعات جديدة ... وفى هذا المجال نقول: لِلاختراق حدود .

أما المجال الثانى، فهو المجال الثقافى العلمى ، الذى تسعى إسرائيل إلى اختراقه بوسائل مختلفة، عن طريق أبحاث مشتركة، أو تبادل الزيارات العلمية، أو من خلال المشاركة فى الندوات والمؤتمرات العلمية، أو المشروعات الثقافية مع المثقفين والمؤسسات الثقافية المصرية. وحتى الآن استطاع معظم هؤلاء المصريين الالتزام بمقاطعة التطبيع مع إسرائيل ومؤسساتها ، والتمسك بذلك الموقف حتى ينتهى الاحتلال الإسرائيلى للأراضى العربية المحتلة ، وإقامة دولة فلسطين على ترابها الوطنى .

بيد أن هذا الموقف لم يخل من ثغرات نفذ وينفذ من خلالها بعض المصريين ممن خدعوا أنفسهم بقضيه الحاجز السيكولوجى، أو دعوى السلام بأى ثمن، لأنه غاية مثلى فى حد ذاته ، ومن هذا القبيل أيضا أولئك الذين يشاركون حاليا فيما يعرف باسم «مشروع المبادرة من أجل السلام والبحث عن أرض مشتركة فى الشرق الأوسط» . . ونتساءل عن «أرض مشتركة مع من ؟ . . مع الذين اغتصبوا أرض العرب . . و باسم التوارة تارة ، وباسم الأمن تارة ثانية ، وباسم الوطن التاريخى مرة ثالثة ، وبدعاوى أخرى كثيرة مزيفة ، جسدتها فى صورة مكثفة مقولة ذلك الحاخام الاسكتلندى (لا ننسى شيئا ولا نتسامح فى شىء) !! .

وعلى الرأى العام المصرى وعلى طلائعه من المثقفين وكل الشرفاء من

الحريصين على كرامة الأمة والوطن والمواطن أن يكونوا على وعى أشد وأحد بما تحاول الصهيونية أن تنفذ إليه من أنشطة مجتمعنا بغية إفساده أو تشويهه . . إن لما حدث من اختراق حدود ... ولقد حدث الكثير من الصهينة عن تلك الاختراقات ـ لكن للصهينة عنها أيضا حدود . وقد أدى ذلك إلى الشعور بالهوان لدى كثير من المواطنين ، ولعل آخر الأمثلة ما سمعناه من سلوك جواسيس إسرائيل من آل مصراتى أمام القضاء المصرى ، ثم ماقرأناه عن إطلاق سراحهم أحراراً للعودة إلى أرضنا المغتصبة ... أى هوان بعد ذلك . . رحم الله الشاعر العربى إذ يقول :

ولا يُـقـيمُ علـى ضَـيْمٍ يُـرادُ بـه
إلاّ الأذَلاّن عِـيـر الـحـيِّ والـوتـد
هـذا علـى الخَسـفِ مربـوطٌ برُمَّتِـهِ
وذا يُشـج فـلا يرثى لـه أحَـدُ

المقال الثالث عشر

من أجل ذبح الوعى العربى

هذه رسالة وصلتنى ، وأجد من واجبى أن أشرك القارىء العربى فى تأمل مضمونها وما تستهدفه من سعى خبيث لإعادة تشكيل الوعى العربى ومسح الذاكرة القومية ، والإذعان لمفاهيم الثقافة الصهيونية فى صراعها مع الثقافة العربية الإسلامية . أود قبل أن أنقل تلك الرسالة أن أخاطب مع الثقافة العربية الإسلامية . وأود قبل أن أنقل تلك الرسالة أن أخاطب صاحبها بأننا جميعاً فى مصر ضد الإرهاب والعنف تحت أي شعار دينى ، سواء اتشح بالزى الإسلامى ، أم المسيحى ، أم اليهودى ، أم البوذى ، أم الهندوسى ، أم حتى كان زيه أيديولوجيا : يساراً ، أم يمينا ، أم وسطاً ، أم عرقياً ، أم قبليا .

ولعلى أحث اللاهثين وراء التطبيع ، أو المطمئنين إلى عودة القدس الشرقية ومسجدها الأقصى وقبة الصخرة وكنائس بيت لحم ، أحثهم على تدبر هذه الرسالة .

(*) مقال نشر أواخر عام ١٩٩٦ ، تعليقاً على رسالة ماسونية وصلت إلى الكاتب .

اهتدى مرسل هذه الصحيفة المسمومة إلى عنوانى من منتدى الفكر العربى فى عمان (لخصوصية صياغة العنوان) ، لكن الذى حملها بريد القاهرة وعليها طابع تذكارى بمناسبة الاحتفال بمرور خمسين عاماً على تأسيس جامعة الدول العربية (مما دعانى إلى إعادة التفكير فى مصدر العنوان) . وهى موجهة كما يبدو من سياقها إلى جميع اعضاء منتدى الفكر العربى ، وهم جماعة من المثقفين العرب بمختلف مشاربهم وتوجهاتهم وأقطارهم ، وتستهدف حملهم ـ بكل ما فى الرسالة من سذاجة ودهاء وتزييف ـ إلى أن السلام قد حل ، وعليكم أن تنسوا ماضيكم الملىء (بالرجعية والظلم والخرافات) وإلغاء المواد الإسلامية من التعليم من أجل (تجفيف منابع المد الإسلامى) إلى جانب السعى إلى إنشاء سوق شرق أوسطية . وباختصار. . تعرية الأمة العربية عن ماضيها . . وذبح حضارتها حاضراً ومستقبلاً

أما المرسل فلم أسمع عنه من قبل ، يحدثنى بصيغة (الفارس الشهم) ويطلق على مؤسسته (محفل الشرق الأعظم)، ولست أدرى إذا كانت هذه المسميات من تقاليد المحافل الماسونية التى هى وثيقة الصلة بالصهيونية ، أم أنها لهيئات وأندية أخرى مما أخذ يتغلغل فى أوساطنا الاجتماعية العليا .

واستعيذ بالله من كل شيطان رجيم ، لأدعك أيها القارىء الكريم لتقرأ رسالة سطورها من سموم :

الفارس الشهم /

تحية محبة وسلام وإخاء .

إننا ونحن أمام عصر من التنوير بعد انتهاء حقبة الحرب الباردة وبداية حقبة النظام العالمى الجديد لنتطلع إلى إخواننا البنائين الأحرار بعين من الأمل والثقة بأنهم ومن خلال منتدى الفكر العربى يدركون تمام الإدراك أهمية وضع حد للتيار الإسلامى الأصولى منه والمعتدل ، ذلك التيار الذى لم تنفع جميع الأساليب التى استخدمناها فى إيقاف مدّه وسيطرته على أغلب الجماهير فى دول الشرق الأوسط .

لا شك أننا جميعاً فى خلال هذا القرن خطونا خطوات جبارة فى تحقيق الكثير من الأهداف التى سبق وضعها من خلال إخوانكم الكبار، فها هى إسرائيل قد قامت وأغلب دول الشرق الأوسط وقّعت كثير من الاتفاقيات الأمنية والاقتصادية معها ، وها هى مسيرة السلام قد تخطت جميع الحواجز والعراقيل التى وضعت لها .

إننا متفقون جميعاً ما لأهمية تجفيف منابع المد الإسلامى حتى يمكن حسره فى حقبة زمنية معينة ثم ينتهى إلى الأبد ونكون قد حققنا هدفنا الأكبر .

إن التوصيات التى تخرجون بها من خلال ندواتكم يجب أن تتناول موضوع تجفيف منابع المد الإسلامى وأهمها إلغاء المواد الإسلامية من

الفصول المدرسية فى جميع بلدان الشرق الأوسط ، كذلك يجب أن ننظر إلى المواد التاريخية نظرة مختلفة عن السابق فالافتخار بالماضى أو البكاء عليه لا يمكن أن يقدم الأمم ويحسن من مستواها الاقتصادى خصوصا إذا كان هذا التاريخ ملىء بالرجعية والظلم والخرافات ، إن تقدم شعوب الشرق الأوسط لا يمكن أن يتم إلاّ إذا استفادت شعوبه من بعضها فمن يملك المال والأيدى العاملة قد لا يملك التكنولوجيا والتقنيات العلمية المتقدمة .

كما نرجو أن تكون من ضمن توصياتكم إنشاء سوق شرق أوسطية على غرار السوق الأوربية المشتركة وتكون مقر هذه السوق فى أفضل دولة متقدمة وديمقراطية .

نحن بطبيعة الحال ليس ضد الاسلام كحضارة أو ثقافة ولكننا جميعا ضد التيارات الإسلامية الأصولية الإرهابية .

فى الختام نرجو لمنتداكم النجاح والتوفيق .

ميشيل أنطوان

محفل الشرق الأعظم

ولا تعليق لى على هذه الرسالة إلا أن أردد (لا حول ولا قوة إلا بالله ، وبطاقات مصر وأمتها العربية)

المقال الرابع عشر

احتجاجاً على مشاركة إسرائيل في معرض القاهرة الدولي.. أتساءل ولا أتثاقل

● أتساءل ولاأتثاقل حول الحكمة فى السماح لإسرائيل بالاشتراك فى معرض القاهرة الدولى الصناعى والزراعى . ويضطرب العقل والوجدان ويلح التساؤل :

ماذا جرى ؟ هل غيرت إسرائيل سياستها العدوانية العنصرية حتى نرحب بها بعد أن وقف الشعب المصرى بكافة قواه الوطنية ولمدة ١٧ عاماً ضد دخولها إلى أبواب معارضنا وأسواقنا ومهرجاناتنا القومية والدولية ، ثقافية وفنية وسلعية ؟ .

لم يحدث شيء من هذا ، وآخر ما تختزنه ذاكرتى من صلفها أنها كانت فى الأسابيع القليلة الماضية تهددنا بالويل والثبور وعظائم الأمور .

---

* مقال نشر فى أوائل عام ١٩٩٦ ، بمناسبة الاحتجاج على السماح لوفد إسرائيلى بالاشتراك فى معرض القاهرة الدولى الصناعى والزراعى فى القاهرة .

● أتساءل ولا أتثاقل : هل انتهى الاحتلال الإسرائيلى للأرض العربية فى فلسطين والجولان وجنوب لبنان ؟ هل استرد العرب والمسلمون قدسهم الشريف ؟ هل توقف الصهاينة عن هدم البيوت ودك القرى والاعتقال والسجن والطرد والتهجير للعرب ؟ بل هل أوفوا بأبسط تعهداتهم فى اتفاقية غزة / أريحا ؟ . إن شيئاً من هذا لم يتحقق ، واسألوا ساحل لبنان المحاصر، وبيوت النبطية، وقرى التفاح والسجون فى غزة، وأطفال الضفة وغيرهم ممن يسفك جيش الدفاع دماءهم كل يوم .

● أتساءل لا أتثاقل : ماذا جرى ؟ هل تخلصت إسرائيل من رءوسها النووية التى تزيد عن المائتين، والتى وتحملها صواريخ بعيدة المدى لكى توجهها تهديداً لحاضرنا ومستقبلنا أو لإرهابنا بقوتها المدمرة ، ثم حتى بإطلاقها ـ حين تقرر ذلك ـ إلى أهم مراكز العمران فى وطننا العربى ؟ وحسب مخططها سوف تصوب تلك الرءوس إلى القاهرة والجيزة والإسكندرية وأسوان ، وإلى دمشق حلب وحمص ، وإلى طرابلس وبنغازى ، وإلى الرياض وجدة ومكة ، وإلى عمان والزرقا وإربد ؟ ومن يظن فى ذلك مبالغة أو زعماً من عندنا ، فعليه أن يراجع كتاب (الردع النووى الإسرائيلى) لمؤلفه شاى فلدمان، الباحث فى مركز الدراسات الاستراتيجية فى جامعة تل أبيب

Shai Feldman , Israeli Nuclear Deterrance

لا شىء على الإطلاق قد تغير فى استراتيجيتها النووية ، وما يزال

مركز ديمونة وغيره من مراكز المفاعلات النووية يستقبل المزيد من المفاعلات لإنتاج الرءوس النووية الأكثر تدميراً وإبادة .

● أتساءل ولا أتثاقل : هل استجابت إسرائيل لدعوة السيد الرئيس حسنى مبارك، مطالباً باسم مصر وغيرها من الأقطار العربية بالتوقيع على معاهدة حظر انتشار السلاح النووى فى إبريل القادم ؟ وهل وافقت على اقتراحات سيادته المتكررة بتجريد المنطقة من كل أسلحة الدمار الشامل، كخطوة ضرورية للأمن والاستقرار، ولسلام حقيقى عادل وشامل ؟ لكن ما يزال الرفض هو اللحن الجنائزى بإيقاعه المستعلى بأن سلاحها النووى هو ضمان أمنها حتى يتحقق السلام بشروطها ، وبصرف النظر عن أمن غيرها من الأقطار العربية .

● أتساءل ولاأتثاقل : هل غيرت إسرائيل من تزييفها للتاريخ وأحداثه ، حيث تزعم أن المسجد الأقصى يخبىء تحت موقعه هيكل سليمان (عليه السلام) تبريراً للحفريات تحته وحوله ، وحيث إن أرض الميعاد لبنى إسرائيل تمتد من النيل إلى الفرات، وأنهم هم بناه الأهرام على حد زعم بن جوريون بعد جلسة توقيعه لمعاهدة الصلح مع مصر فى كامب ديفيد ؟ وهل أقلعت عن تزييف أبسط الحقائق ، حيث إن برتقال الضفة الغربيه تصدره على أنه برتقال يافا الإسرائيلى ، وحيث إن الثياب الفلسطينية المطرزة من الفنون الإسرائيلية ، بل إن (الطعمية) غذاء شعبى إسرائيلى ؟

● أتساءل ولا أتثاقل حول هذا وغيره كثيرًا والإجابات كلها سلبية محبطة ، فلماذا إذن غيرنا موقفنا من المقاطعة إلى السماح بالمشاركة فى هذا المعرض الزراعى الصناعى ؟ هل مازلنا حريصين على ترويج إنتاجنا وسلعنا وعلى تجسيد شعار (صنع فى مصر) وليس على (صنع فى إسرائيل) من خلال هذا المعرض ؟ هل نحن على وعى بما نفتح لإسرائيل من أبواب لاقتصادها ، أم أنها حالة (صهينة) فلا خوف علينا من المنافسة ولا يحزنون ، فهى دولة صغيرة فى محيط سوق شرقية أوسطية نحن كثرتها الكاثرة ، ومن ورائنا حضارة سبعة آلاف عام ، أم أنها ضغوط أمريكية وأوربية وصندوقية من أجل القروض والمعونات والمديونية ؟ .

● وأخيراً أتساءل واستأذن فى التثاقل، تفسيراً لموقفنا الذى تغير بلا مبررات أو دواعٍ حقيقية ، فاسرائيل ماتزال تحتل الأرض وتستخف بكرامتنا ، وتسعى بالقوة والابتزاز والخديعة والمماطلة والتزييف إلى الهيمنة على مقدراتنا ، اقتصادا وسياسة وثقافة وأمنا . وواجبنا الذى تفرضه خريطة الواقع الراهن، والتى تتضح معالمها وتضاريسها يوماً بعد يوم ، وحدثا بعد حدث ، واختيارًا بعد اختيار أن اسرائيل ـ باختصار ـ ما تزال متمسكة باستراتيجية العدوان على الأمة العربية !! فلتكن استجابة كل مواطن ومواطنة مصرية فى هذه اللحظة التاريخية مقاطعة الجناح الإسرائيلى فى معرض القاهرة الدولى للصناعة والزراعة ، وليتفرج الإسرائيليون وحدهم على بضائعهم ، ولتحوم من حولها الغربان حين تصبح ، والخفافيش حين تمسى ، والعزة لمصر دوما .

المقال الخامس عشر

تأملات عربية فى الأولمبياد الأمريكية *

● من صحائف التاريخ

تقودنى الصدفة مقرونة بما لدى من شغف حاد منذ الصبا بالألعاب الرياضية إلى متابعة أحداث الدورة الأولمبية الخامسة والعشرين على شاشة التلفزيون الأمريكى أثناء زيارتى للولايات المتحدة صيف هذا العام . ولما كان قد انقضى على بدء تنظيم الأولمبياد الحديث مائة عام ، فقد صحب انعقاد هذه الدورة صخب منقطع النظير من الدعاية والإعلام والإعلان ، وما ارتبط بذلك من « أفعل التفضيل » التى يستأثر بها العقل الأمريكى فى ذكر كل ما تحقق للدورة من أحسن التنظيم وأكثر الدول المشاركة وأرفع مستويات المتنافسين .

ولعله من المفيد أن نُذكِّر القارىء بأن الألعاب الأولمبية قد بدأ

(*) مقال نشر فى أواخر عام ١٩٩٦ ، تعليقاً على ملاحظة الكتاب انتهاز إسرائيل المناسبة للتعاطف العالمى مع احتلالها الاستيطانى .

تنظيمها فى مدينة أولمبيا ببلاد الإغريق منذ عام ٧٧٦ ق . م حين تنادت المدن الإغريقية المتنافسة على الزعامة إلى إيجاد فترة من الزمن تضع فيه سلاح الحرب ، وتعقد حلبة للتنافس فى البطولات الرياضية . وقد استمرت تلك الدورات الإغريقية تنعقد كل أربع سنوات حتى مطلع القرن الخامس قبل الميلاد، حين أصبحت المدن اليونانية جزءا من الإمبراطورية الرومانية . وتعطل انعقادها ، حتى تم إحياؤها من جديد عام ١٨٩٦ مع بداية ظهور القوميات الحديثة ونزعات التنافس على المستوى الوطنى .

وليس من مقاصدى فى هذا المقال أن أصف ما كان يجرى من أحداث أولمبية فيها قبل الميلاد وما تحكيه وثائق التاريخ من المفارقة بين أهدافها المثالية فى السلام والوئام والتنافس الشريف ، إذ تؤكد تلك الوثائق ما اصطبغت به من الألوان السياسية والتجارية والعنف ، والذى ما يزال يلوث مجرياتها حتى فى طابع الدورات الحديث . وعلى سبيل المثال . . كان يمارس المتنافسون القدامى الرياضة وهم عراة ، اعتزازاً بأجسامهم ، وتميزاً لهم عن الرقيق والبرابرة غير الأحرار من سكان المدن ممن كانوا يحرصون على التدثر بالملابس ، شعورًا باحتقارهم لأجسامهم . وكان كسر الأصابع والضلوع وخنق الرقاب من المسموح به من أجل كسب النزال فى المصارعة والملاكمة . والمنتصرون مفخرة « وطنية » لمدنهم ، إذ يرفعون إلى مقامات تقترب من تكريم الآلهة ؛ فتقام لهم تماثيل بالحجم الطبيعى فى مدينة أولمبيا ، وفى مدنهم الأصلية ، أما المنهزمون ، فكان

نصيبهم الخزى والعار ، لا يصافح أى منهم منتصراً ، بل يعودون إلى ديارهم فى جنح الظلام ـ وعلى ما يسمى بالروح الرياضية السلام ، وأى سلام !! .

ومما يستحق الإشارة العابرة . . حرمان النساء من المشاركة أو المنافسة فى أى من الألعاب الرياضية ، بل كان محظوراً عليهن حتى مجرد المجىء إلى الساحة الأولمبية للمشاهدة ومجرد الفرجة ، ومن يعثر عليها هناك تتعرض لأقسى العقوبات البدنية ؟ وهل يترك هذا الحظر فى ذهنك أيها القارىء تداعيات فى واقعنا العربى ؟ !.

● أولمبياد أتلانتا الأمريكى

تدعونى تلك المقدمة التاريخية إلى إدراك ما حدث من تطور فى تنظيم الأولمبياد خلال السنوات المائة الفائتة . لقد شهدت تغيرات هائلة من حيث عدد المسابقات وتنوعها وحجم المتنافسين وعدد الدول المشاركة ، وتنقل انعقادها بين مختلف الدول والعواصم ، فضلاً عن عدد الجمهور المشاهد والمشجع وأعداد الإعلاميين بمختلف أجهزتهم وقنواتهم .

ومما بهرنى فى أولمبياد أتلانتا ، ما سمعته من قصص التمرين المستمر والمثابرة الدءوبة خلال سنوات للمتنافسين ، وليس مجرد تدريب لبضعة أشهر، أو حتى لسنة استعداداً للمشاركة . أضف إلى ذلك . . مختلف الأساليب العلمية والتكنولوجية والأجهزة المستخدمة فى التمرين واكتساب اللياقة إلى جانب المهارة المتخصصة .

ولقد بهرنى كذلك مشاركة المرأة مشاركة بارزة وملحوظة فى كثير من الألعاب الرياضية . وتم إدخال مباريات كرة القدم النسائية لأول مرة كلعبة أولمبية . ولا أشك فى أن أى إنسان سوف يتملكه الانبهار وهو يرى الفتيات وهن يتنافسن فى السباحة أو فى ألعاب القوى ، أو فى الجمباز الإيقاعى، أو فى فرق السباحة المتناغمة . وأشهد أنى كنت أعجب أشد العجب بما منحهن الله من ثقة بالنفس ، وقوة فى الجسم، ورشاقة فى الحركة ، وكنت أتمتم قائلاً سبحان الذى خلق فسوى ، والذى فى أحسن صورة ماشاء ركب .

● المنغصات والتحيزات

لم يخل الإعلام التلفزيونى لأحداث الأولمبياد الأمريكى من منغصات ، منها اختلاط المشاهد الرياضية بالوقائع الإعلانية طوال الوقت ، مما أدى إلى التفكك والانقطاع فى تتبع المسابقات ، وأفقد المشاهد متعة المتابعة والاستمتاع بالتموجات الدرامية التى تتخلل المنافسات منذ البداية حتى النهاية . ويعزى هذا بطبيعة الحال إلى أن تمويل الدورة وتنظيمها قد تولته هيئات وشركات من القطاع الخاص ، وكان لا بد لها من استغلال هذه المناسبة للترويج لسلعها، وللربح مما يتم استهلاكه منها ومن أسعار تذاكر الدخول المرتفعة .

كذلك كان لتولى القطاع الخاص المسئولية الكاملة لتنظيم وإدارة هذه الدورة ظهور مشكلات تنظيمية فى المواصلات وفى الإقامة وفى التغذية . وقد أشار إلى مشكلات إدارة القطاع الخاص بمفرده بعض النقاد ، ورأوا

ضرورة مشاركة القطاع الحكومى (الولاية ، الحكومة الفيدرالية) فى مثل هذه المناسبات القومية . وممن أوصى بضرورة تلك المشاركة، السفير أندرو يونج، رئيس الوفد الأمريكى إلى الأمم المتحدة سابقا، ونائب رئيس اللجنة الوطنية المشرفة على الدورة .

وحين استمعت إلى ملاحظة السفير وانتقاده لانفراد القطاع الخاص بالتنظيم، وما ترتب على ذلك من مشكلات وقصور وشكاوى ، اصطدمت ملاحظته بما يدعيه البعض عندنا من القدرة المطلقة والأداء المحكم والعمل المنجز للقطاع الخاص ، مقارنة ببيروقراطية الدولة والقطاع العام . وهذه ملحوظة ينبغى الإلتفات إليها، تتردد فى أكبر دول نظام الرأسمالى الحر .

ومن بين التحيزات التى شاعت فى عرض الأحداث الرياضية على شاشة التلفزيون، بل وفى الصحف أيضا : الاقتصار فى معظم الحالات على إبراز الانتصارات الأمريكية فى المسابقات ، فضلاً عن الاقتصار على عرض مناسبات تقديم الميداليات الذهبية عليهم، وما يصحب ذلك من رفع العلم الأمريكى، وموسيقى النشيد الوطنى . ليس لنا اعتراض على ذلك البتة ، وإنما اتهامنا بالتحيز يكمن فى حرمان المشاهدين من وقائع المسابقات التى يحرز فيها أبطال من جنسيات أخرى الميداليات الذهبية ، وفى أحسن الحالات كان يتم العرض فى لمح البصر، أو بصورة إخبارية فحسب .

مثلاً إننا لم نسمع ولم نر مشهداً عن إحراز نور الدين مورسلى البطل الجزائرى الحائز على الميدالية الذهبية فى سباق ١٥٠٠ متر ، ولاعن غادة الشوا البطلة السورية الحائزة على الميدالية الذهبية فى سباعية ألعاب القوى . ثم ألم يستحق إعجاز فريق كرة القدم النيجيرى بإحرازه الميدالية الذهبية، نوعاً من العرض لمباراته الختامية، أو لمشهد حصوله على ميدالياته .

ومثل هذا التحيز ـ وليس مجرد الاعتزاز مع الاعتراف بالغير ـ قد دعانى إلى التأمل فى مقولة أننا نعيش فى قرية كونية ، تعاد فيها صياغة مفاهيم السيادة والوطنية والقومية والهوية ، وعلينا أن ننخرط فى حضارة النظام العالمى الجديد، ومحيطات الكوننة والعولمة ونهاية التاريخ ونهاية الجغرافيا ! .

● الصهيونية تنتهز الفرصة

تنفجر قنبلة الأنبوب فى قاعة القرية الأولمبية ، وتمتد عناصر الاتهام إلى مصادر داخل الولايات المتحدة من بين مواطنيها . ويستنكر العالم كله هذه الجريمة الإرهابية . وتتوالى الأحداث متلاحقة مسرعة فى انتهاز الحركة الصهيونية الأمريكية هذه الجريمة النكراء ، فلم تمض ساعة، حتى ألفيت على شاشة التلفزيون حواراً يقيم الشبه بين هذا الحدث وماحدث فى أولمبياد ميونخ، من مقتل مجموعة من رياضيى إسرائيل على يد فئة فدائية من الفلسطينيين . ونحن إذ نستنكر كل عمل إرهابى يوجه

إلى الأفراد ، إذ إنه لا يحل قضية، إلا أننا نستنكر كذلك البرنامج التلفزيونى الذى أقام الشبه التام بين الحادثين ، الإرهابيين ، فحادث أتلانتا إرهاب لا يفرق بين ضحاياه ، وليس له من هدف أو مبرر معروف، بينما إرهاب ميونخ جريمة سياسية لها رسالتها المحددة ، وضحاياه المقصودة .

ولم يأت اليوم الثانى بعد القنبلة إلا وشاهدنا حوارًا مع عمدة القدس مردداً جريمة ميونخ ، ورسوخها فى الحياة الإسرائيلية رسوخ جرائم الهولوكست أيام نازية هتلر . ويؤكد العمدة المخاطر الأمنية التى تتعرض لها إسرائيل من إرهاب جيرانها من العرب .

وبعد أيام قلائل تظهر على الشاشة سيدة يهودية أمريكية اسمها رنبرج تتحدث عن إحرازها للميدالية الذهبية فى القفز الطويل ضمن الفريق الألمانى فى اولمبياد برلين عام ١٩٣٦ ؛ وقد أعجب هتلر بها أحرزته بيد أنها بررت الدافع إلى بطولتها التأكيد على تفوق الشعب اليهودى ونسائه ، وإلى ضرورة ضمان أمنه فى دولة إسرائيل . ثم إنها حاولت الهرب فجاءت إلى الولايات المتحدة دون أن تطالها يد الإبادة النازية للشعب اليهودى !!

وتتواتر الأحداث فى انتهاز المناسبة للضغوط الصهيونية ، ويشهد التلفزيون الأمريكى مجموعة من شباب اليهود من أبناء قتلى ميونخ فى اجتماع لذكرى ضحايا ذلك الحدث ، يعيبون على الدورات السابقة أنها لم تتذكر أولئك الضحايا ، ويطالبون بذلك فى ختام هذه الدورة .

ولم تذهب مطالبتهم سدى ، بل وجدت استجابة سريعة من رئيس اللجنة الأولمبية الدولية ، الذى لم يتردد فى كلمته فى الحفل الختامى من التنديد بالإرهاب بما حدث فى ميونخ على وجه الخصوص .

تلاحقت تلك المشاهد الصهيونية فى عقلى ووجدانى لتؤكد لى أن ذاكرة الصهاينة لا تنسى ، وأنها قادرة على توظيف الماضى ، بما يبرر للعالم مشروعية شعب الله المختار فى احتلال الأرض ، وتبرير عدوانهم ، وتزييف التاريخ ، واختزاله ، وإعادة تفسيره بما يعزز مصالحهم ، ومساندة العالم لدعاوى حقهم فى ارض الميعاد . يجرى هذا فى الوقت الذى يطالبنا فيه بعض من الحكام والمثقفين وأصحاب المصالح الفئوية بأن ننسى تاريخنا وسجل الفظائع والحروب التى سالت فيها دماء العرب فى صراعهم مع الإسرائيليين . ويتصايح البعض بأن علينا أن نتفهم الأمر الواقع وأن نتبنى ثقافة السلام مع « أبناء عمومتنا» كما تجرى الإشارة إلى بنى إسرائيل فى بعض المحافل الرسمية وغير الرسمية ، إذ لا فائدة من اختزان ذكريات الحروب التى أنهكتنا فى الصراع العربى الإسرائيلى ، أو فى تذكر مذابح لا حصر لها ، بدءا من دير ياسين ، إلى صبرا وشاتيلا وبحر البقر ، حتى مذابح قانا .

وخلاصة تأملى هى أنه مهما كانت مصائر عملية السلام ، فإن ذاكرة الأمة ينبغى أن تظل سلاحها فى معارك النضال من أجل التحرير وكرامة الأمة الوطن والمواطن ، وهى بصلتها الهادية إلى إقرار سلام عادل وشامل ودائم .

المقال السادس عشر

دقت ساعة العمل الشعبى *

هذه أسطر قليلة ، أندفع فيها للتعبير عن صدر يختنق وأحشاء تتلوى بآلام الخيبة والشلل والتردى مما وصلت إليه ما عرفت بمسيرة السلام لإيجاد حلول شاملة وعادلة للصراع العربى الإسرائيلى . أشعر بأن عمليات التفاوض مع الصهاينة قد أوشكت أن تصل إلى طريق مسدود ، إن لم تكن قد وصلت إلى ذلك فعلاً . وهل من دليل أو نذير أبلغ وأخطر من قرار الحكومة الإسرائيلية بالموافقة على الشروع فى بناء الحى الاستيطانى الجديد فى منطقة جبل أبو غنيم بالقدس العربية ،و فى غيرها من المواقع .

وقد صحب هذا القرار التحرك المباشر للبولدوزرات ، كما صحبه كذلك إنذار لرئيس السلطة الفلسطينية من نتنياهو رئيس وزراء

---

* مقال نشر فى أوائل ١٩٩٧ ، بمناسبة إعلان إسرائيل عن بناء مستعمرة جديدة فى جبل أبو غنيم فى القدس الشرقية .

إسرائيل بأن أية مقاومة لإقامة هذا الحى سوف تواجه بإطلاق النار إن اقتضى الأمر ، بل أنها قد تؤدى إلى وقف الانسحاب من الضفة ... وهل بعد هذا تحد وإرغام لقبول كل أمر واقع إسرائيلى؟ .

يحتدم الغضب وأتساءل : أين قرارات مجلس الأمن ؟وأين قرارات الجمعية العمومية للأمم المتحدة بإدانة تهويد القدس ، وعدم الاعتراف بما اتخذته وأعلنته بأن القدس بقسميها عاصمة إسرائيل الموحدة الأبدية ؟ وتتوارد الخواطر لأتساءل : أين تفسير اللورد كارادون صائغ القرار ٢٤٢؟ ثم أين خطاب شولتز وزير الخارجية الأمريكية للعاهل الأردنى الملك حسين فى يناير ١٩٨٣ ؟ وفى كل من هذين التقريرين تأكيد على أن مضمون الانسحاب من الأراضى المحتلة يمتد إلى الجبهات الثلاث فى سوريا ولبنان وفلسطين للأراضى المحتلة ، بما فيها القدس الشرقية .

وتجىء اتفاقيات أوسلو والقاهرة لتقرر أسس عملية السلام فى ضوء قرارات الشرعية الدولية ومحورها الأرض مقابل السلام ، وأن قضية المستعمرات وموضوع القدس مطروحان للتفاوض . وبين الخداع والمراوغة والكذب الإسرائيلى نصل إلى هذه اللحظة التاريخية الحاسمة والمنعطف الخطير فى عملية السلام . وهذه هى القدس العربية يتم تهويدها عمرانا وإنسانا ، ويتحقق الحلم الصهيونى . ويؤكد ـ دون تردد ـ نتنياهو أن القدس عاصمة إسرائيل الموحدة الأبدية . ومن ثم تجسد أفاعيله المتعددة فى واقع القدس القانون الأساسى الذى قرره الكنيست الإسرائيلى بتاريخ ٣٠ يوليو ١٩٨٠ ، معلنا أن [القدس الموحدة بكليتها

هى عاصمة إسرائيل] . وفى ٢٠ أغسطس من نفس العام يصدر مجلس الأمن قراره رقم (٤٧٨) يشجب بأقوى عبارة ادعاءات اسرائيل حول القدس، كما وردت فى القانون الأساسى .

ومنذ أوسلو يتردد مبدأ الأرض مقابل السلام ، لكن الواقع الإسرائيلى يتمسك تارة بالسلام مقابل السلام ، أو السلام مقابل الأمن . لا يعلم أحد على التحقيق ماذا تضمره الدولة المحتلة للأرض العربية من مضامين حقيقية لتلك الشعارات ، بيد أن كل يوم يمر يعزز اقتناعنا بطبيعة إسرائيل العدوانية التوسعية العنصرية ، وأنها لم تتخل عن أطماعها فى أرض اسرائيل الكبرى منذ أيام بن جوريون ، امتدادا حتى نتنياهو وأحلام الحرس الأقدم عزرا وايزمان وأبا إيبان وإسحق نافون ممن نشاهد صورهم على شاشة التلفزيون فى هذه الأيام .

قد انكشفت كل الأقنعة الإسرائيلية وخداع حلفائها . ولم تعد قرارات الإدانة أو الاستنكار الدولى مما تأبه له إسرائيل ، وقد غدت تصريحات الشجب وإظهار القلق أو عبارات التحذير كافية من قبل حكوماتنا من معوقات أو نكسات لمسيرة السلام ، بل وحتى تزعزعت مصداقية الاتفاقيات الجزئية المسكنة التى لا يتم تنفيذها مما يبشر بالوعد القومى . ولن تنطلى علينا دعاوى إزالة الحاجز النفسى ، أو بناء جسور الثقة ، أو خيرات الشرق أوسطية ، أو حوارات المثقفين الظاهرة و المستترة ، أو بتهمة أعداء السلام ، أو ضعف العقول كما يرى مؤرخنا الجليل .

نحن فى حاجة إلى بناء وتعزيز ثقافة المقاومة فى مواجهة قبول الأمر الواقع الذى يفرضه التهديد بالقوة الغاشمة ، تلك القوى الصهيونية داخل إسرائيل وخارجها ، ثقافة تعبىء الطاقات الشعبية وطلائعها من حركة المثقفين فى الوعى بمخاطر الاستسلام للأمر الواقع ، بزعم أنه لا خيار أمامنا على أساس قدراتنا المحدودة ، مع أنه لم تختبر إمكاناتها الحقيقة فى مقاومة كل الصور والأحداث والرموز الممثلة لمحاولات السيطرة والعدوان على حقوقنا المشروعة . إن نذر الكوارث غير مستبعدة نشير فحسب إلى حريق المسجد الأقصى عام ١٩٦٨ ، وإلى مذبحة الحرم الإبراهيمى ، وغير ذلك كثير من صور الطغيان والإذلال الإسرائيلى لنا ، ولما يمكن أن تزهق من أرواح أو تحطم من تراث .

لقد أصابنى الإرهاق ، ودعونى على الأقل أستمع إلى فيروز تصدح بصوتها العميق (يا قدس . . يا زهرة المدائن . . يا أرض السلام . .) ولعلكم جميعا تعيدون وتعيدون هذا النداء كل يوم وفى كل مكان فى هذا الأوان .

المقال السابع عشر

توقفوا عن ملهاة كوبنهاجن *

لقد انفتح باب خلوة كوبنهاجن السرية خلال الأسبوعين الماضيين ، وانشغلت ببيانها الصحف ودوائر المثقفين . وهبت جموع المثقفين وغيرهم من فئات المجتمعات العربية إلى استنكاره شكلاً ومضمونا ، واعتبرته انعكاساً لثقافة الانكسار وقبول الأمر الواقع . كما رأت فيه تعزيزاً لجبروت الصهيونية التي ما يزال قادتها وقواها الفاعلة ـ لافرق بين حزب وآخر ـ تردد مبدأ (اتركوا القانون جانبا والتفتوا إلى ما تصنعه إسرائيل) وهو ما صاغه بن جوريون ، ويلتزم به الجميع انتهاء بنتنياهو .

واعتقد أن استمرار الجدل حول هذا البيان الذى بدأ مشواره بفكر (٢٦) مثقفا مصرياً وانتهى إلى عدد (٧) ، قد يكون ملهاة تصرفنا عما يجرى على أرض الواقع فى صوره المتلاحقة ، وبخاصة منذ مجىء نتنياهو الذى تمكن بغطرسته وغروره من التعرية التامة للمخططات الصهيونية .

---

* مقال نشر حول تكوين التحالف الدولى من أجل السلام العربى ـ الإسرائيلى واعتباره اختراقا لموقف المثقفين المصريين من مقاومة التطبيع .

والحاصل أن الأحداث قبل البيان ، بل وبعده بأيام ، قد تجاوزت كل طموحاته الأنيمية . لقد أخذ أصحاب البيان ، والقلة القليلة معها نصيبها من توضيح أهدافها ودواعيها التى استفرغتها غالبية المثقفين ، بل واتهمهم بعض من يتحدثون عن احترام (الآخر) بالتخلف العقلى والكسل السياسي واجترار الأحلام . وحتى لا نقع فى مصيدة المأساة ـ الملهاة التى صاغها (البيان) ـ علينا أن نقفل بابه وأن نعيده إلى خلوته حيث توجد عروس البحر (الميرميد) على شاطىء بحر الشمال . ودعوهم يتحاورون مع من يشاءون ، واهمين أنهم يستطيعون تغيير العقيدة الصهيونية فى احتلال (أرض الميعاد لشعب الله المختار) ، أو حتى ايقاف بناء الضاحية الاستيطانية على جبل أبو غنيم . ورحم الله جماعة عرفت قدر نفسها وإمكاناتها .

وإذ نقفل هذا الباب ، علينا أن نتسلح بثقافة المقاومة ونعزز إمكاناتها ومظاهرها وتجسيداتها لدى مختلف القوى الوطنية والقومية فى ساحات مصر وأشقائها من الأقطار العربية من أجل مقاومة مختلف صور ورموز الصهيونية ، والاستمساك بعدم التطبيع الشعبى ، حتى تعود الحقوق إلى أصحابها ، وحتى يتحقق السلام العادل والشامل . وهذا يقتضى ضرورة تنظيم المؤتمرات الوطنية والمحلية فى مختلف أرجاء مصر وبقية الأقطار العربية ، لتتجمع فى مؤتمر عربى قومى شامل للتوعية بالمخططات الصهيونية وتحركاتها ، وكشف مواطن التخدير والتزييف لما يجرى فى مسارات التسوية . وعلى الصحف أن توفر مساحات للتبصير

بكل ذلك ، تلك مسئولية وواجب قومى مصيرى، ولا أقل من أن نتعاهد على أن نقف موقف اللورد هيوكار ادون رئيس الوفد البريطانى فى الأمم المتحدة ، الذى صاغ قرار ٢٤٢ ، أحد مرجعيات عملية السلام الحالية ، التى يقول فيها عن الشعب الفلسطينى (علينا أن نمسح العار وبؤس الاضطهاد والظلم والمعاناة التى تعرض لها ... إننا سنقوم بعمل رائع إذا ما استطعنا أن نسهم فى تمكين هذا الشعب من العودة إلى وطن خاص به ، بحيث يصبح بإمكانه اتخاذ قراره بنفسه ، وبناء مستقبلة ، ويعود إلى أن يحظى بالاحترام الذى حرم منه)

تلك مسئولية تاريخية لشعوب الأمة العربية لتحرير الأرض والمقدسات فى فلسطين والجولان وجنون لبنان ، وعليها أن تتحملها بكل ما تتطلبه من أسلحة وتضحيات ومشقات .

(انظر صورة بيان كوبنهاجن بعدهذا المقال مباشرة) .

وثيقـة
إعلان كوبنهاجن

التحالف الدولى من أجل السلام العربى ـ الإسرائيلى

تجمع مصريون وإسرائيليون وأردنيون وفلسطينيون ومحبون للسلام من جميع أنحاء العالم فى كوبنهاجن لكى ينشئوا تحالفا دوليا من أجل السلام العربى ـ الإسرائيلى . إن السلام من الأهمية بمكان ، بحيث لا يترك للحكومات فقط ، كما أن الصلات بين الشعوب هى أمر حيوى لنجاح جهود السلام فى المنطقة ، ومالم تقف وراءها قاعدة شعبية فإن عملية السلام سوف تتراجع ، وقد اجتمعنا فى كوبنهاجن لكى نسهم فى حل دائم وشامل للصراع العربى ـ الإسرائيلى قبل نهاية هذا القرن ، ولكى نبدأ عصر للسلام العادل والدائم الذى يتمتع فيه الشرق الأوسط بالاستقرار والأمن والرخاء .

إننا نجتمع تحت رعاية حكومة الدانمارك التى تشاركنا الاهتمام بضرورة التوصل إلى حل لجميع جوانب الصراع العربى ـ الإسرائيلى الذى يضر استمراره بمصالح المجتمع الدولى كله .

إننا سوف نعمل على عقد اجتماعات عامة ، ونضغط على الحكومات ونراقب التقدم والنكسات فى عملية السلام ، بنفس القدر الذى نراقب

به أعمال التمييز والعقاب الجماعى ، والإساءة إلى حقوق الإنسان وأعمال العنف ، كما أننا سوف نعبىء الرأى العام وراء جهود السلام .

إن كثيرا تم إنجازه فى صنع السلام بين العرب والإسرائيليين وأدى إلى اتفاقية فصل القوات المصرية - الإسرائيلية فى يناير ١٩٧٤ ، واتفاقية فصل القوات السورية - الإسرائيلية فى مايو ١٩٧٤ ، واتفاقية فصل القوات المصرية - الإسرائيلية فى سبتمبر ١٩٧٥ ، واتفاقيات كامب ديفيد فى سبتمبر ١٩٧٨ ومعاهدة السلام المصرية - الإسرائيلية فى مارس ١٩٧٩ ، وعملية السلام فى الشرق الأوسط التى انطلقت من مدريد فى أكتوبر ١٩٩١ ، وإعلان المبادىء الفلسطينى - الإسرائيلى فى سبتمبر ١٩٩٣ ، واتفاق القاهرة الفلسطينى - الإسرائيلى فى مايو ١٩٩٤ ، وإعلان واشنطن بين الأردن وإسرائيل فى يوليو ١٩٩٤ ، ومعاهد السلام الأردنية - الإسرائيلية فى أكتوبر ١٩٩٤ ، واتفاق المرحلة الانتقالية الفلسطينية - الإسرائيلية فى سبتمبر ١٩٩٥ ، وإعلان قمة شرم الشيخ لصانعى السلام فى مارس ١٩٩٦ ، واتفاق الخليل الأخير .

إننا نشعر بقلق عميق إزاء الجمود فى المسارات السورية الإسرائيلية ، واللبنانية الإسرائيلية ، واحتمالات الوصول إلى طريق مسدود فى المفاوضات الإسرائيلية - الفلسطينية أثناء تنفيذ الاتفاقية الانتقالية ، حول احتمال انفجار العنف الذى قاد فى الماضى إلى وقوع الضحايا العرب والإسرائيليين .

إننا نعرف أنه لا يزال علينا قطع طريق طويل قبل تحول الرؤية

الحقيقية للسلام إلى واقع . إن الأمل فى الوصول إلى سلام شامل يؤدى إلى التعاون الإقليمى ، وإلى حياة أفضل لكل شعوب الشرق الأوسط من الممكن أن يتبدد ، وأن عملية السلام يمكن أن تتأخر فى وقت يخيم فيه خطر الحرب الذى يخيم على الشرق الأوسط ، كما أن العدل والمساواة هما شرطان للسلام .

إننا ندرك أننا لا نستطيع الوقوف مكتوفى الأيدى أمام عودة الأخطار القديمة ، وتصاعد أخطار جديدة ضد عملية السلام . إن السلام غال، والحرب بشعة بالنسبة لنا ، بحيث لا يمكننا الوقوف غير مبالين ، بينما يتدهور الوضع .

إننا مقتنعون بأننا نعكس إرادة أغلبية شعوب المنطقة الذين يتطلعون لوضع حد للصراع العربى ـ الإسرائيلى كمدخل لإقامة سلام وتعاون إقليمى ، وبأننا نعبر عن المشاعر الغالبة بين العرب والإسرائيليين ، ولذا فإننا ـ نحن الشعوب ـ يجب أن نشارك بفاعليه فى رسم طريق المستقبل للشرق الأوسط بأن نمنع غلبة القوى المضادة للسلام .

إننا إذ نستهدف إقامة سلام شامل ودائم يقوم على أساس قاعدة مبادلة الأرض بالسلام ، وتطبيق قرارى مجلس الأمن رقمى ٢٤٢ و ٣٣٨ فى جميع جوانبهما ، وإذ نعتبر أن أسس السلام بين الشعب العربى والشعب الإسرائيلى يجب أن تقوم على حقوق متساوية ومتوازية للجميع ، فإنه بالإضافة إلى تطبيق القرارين ٢٤٢و ٣٣٨ ، فإنه من المهم التعامل مع الأسباب الحقيقية للحروب والصراعات فى الشرق الأوسط ،

وكذلك دعم العرب والإسرائيليين لكى يصلوا إلى قواعد يقبلونها معا .

إننا نؤكد عزمنا على تشجيع التعايش السلمى ، والاحترام المتبادل والكرامة والأمن بين شعوب المنطقة ، لكى تكون خالية من كل أنواع العنف ، وأن نتبع طريق التجانس والتصالح الذى يتواءم مع التحولات الكونية فى فترة ما بعد الحرب الباردة .

إننا إذ نحتاج إلى بعضنا البعض ، نؤكد عزمنا على توحيد صفوفنا مع كل الشعوب المحبة للسلام لكى نحقق هذه الأهداف ، ولكى نفعل ذلك . . فإننا نحن الموقعين على هذا الإعلان ، اتفقنا على مايلى .

١ ـ أن التوصل إلى سلام بين الشعبين الإسرائيلى والفلسطينى سوف يحل المشكلة المركزية فى قلب الصراع العربى ـ الإسرائيلى ، وأننا نحن التحالف الدولى من أجل السلام ندعو الحكومات المعنية إلى أن تعمل بقوة وسرعة على التطبيق الكامل للاتفاقيات الإسرائيلية ـ الفلسطينية بنصها وروحها ، وبكل أمانة وصدق ، وأن تعمل بشكل خاص على توفير وتحسين الحياة الطبيعية للفلسطينيين ، كما أننا ندعو الحكومة الإسرائيلية والسلطة الوطنية الفلسطينية للتوصل إلى اتفاق عادل حول القضايا المهمة للوضع النهائى (القدس ، اللاجئين ، المستوطنات ، الحدود ، الأمن ، والمياه) فى أسرع وقت ممكن ، ودون تأخير عن ٥ مايو ١٩٩٩ كما تم النص عليه فى اتفاق أوسلو. ولما كانت القدس ـ على وجه الخصوص ـ موضوعا مركزيا وشديد الحساسية لكل الأطراف ، فإنه من ثم يستدعى اهتماما خاصا فى مفاوضات الوضع النهائى من أجل الوفاء

بمتطلبات جميع الأطراف ، وهذا الاتفاق النهائى بين إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية يجب أن يؤدى إلى ممارسة الشعب الفلسطينى حقه فى تقرير المصير ، بما فى ذلك حق إقامة الدولة ، طبقا للقوانين الدولية ، وحين التوصل إلى تسوية متفق عليها للوضع النهائى بين الطرفين ، ولكى يتوافر مناخ موات المفاوضات ، ينبغى عدم استخدام أو تشجيع أو قبول العنف والإرهاب بأية صورة ، ولكى تزول مخاوف الفلسطينيين ، فإنه ينبغى عدم بناء مستوطنات جديدة وعدم مصادرة الأراضى الفلسطينية الخاصة والعامة .

٢ ـ نحن التحالف الدولى من أجل السلام نعتقد أن السلام الشامل يجب أن يكون هو الهدف الحقيقى الجميع الجهود السياسية من داخل المنطقة ومن خارجها ، كما يجب أن تبذل جهود جديدة للتوصل إلى تسوية سلمية بين إسرائيل وسوريا ، وبين إسرائيل ولبنان على أساس من قاعدة مبادلة الأرض بالسلام وقرارى الأمم المتحدة ٢٤٢ و ٤٢٥ . إن مثل هذه التسوية يجب أن تحقق الحد الأقصى من الأمن المتبادل لكل الأطراف ، وكذلك بناء على علاقات عادية بينها .

كما أن السلام الشامل يجب أن يؤدى إلى منطقة خالية من أسلحة الدمار الشامل ونظم إطلاقها إلى شرق أوسط تستخدم إمكانياته الاقتصادية من أجل رخاء شعوبه ، وأن يتم اتخاذ خطوات لتحقيق هذه الأهداف .

٣ ـ أننا نحث كل القوى فى الشرق الأوسط على أن تتكاتف من أجل

إعادة بناء منطقة مبرأة من سباق التسلح ، وخالية من التشاحن والفقر.

ومن أجل تحقيق هذا المسعى النبيل ، فإننا سوف نغتنم كل فرصة ونطرق كل باب، ونضغط على كل حكومة ، ونحاول نشر رؤانا من أجل مصالح أجيال الحاضر والمستقبل ، ولكى نضمن استمرار نجاح هذه الجهود ، فإن أعضاء التحالف يتعهدون بالتضامن من أجل بذلك الجهود للوقوف فى وجه أعداء السلام.

٤ ـ ومن أجل ضمان استمرارية الدفع من أجل السلام ، فإن سكرتارية دائمة للتحالف سوف يتم تأسيسها ، وسوف يكون شعارنا من الآن فصاعدا : « فلتنته حالة الحرب ولنبدأ حالة السلام » .

٥ ـ وفى هذا السياق ، فإن المؤسسين للتحالف يدعون الجماعات والأفراد على المستويين الإقليمى والدولى المعنيين بمستقبل المنطقة ، إلى أن يتبنوا هذا الإعلان أن يلتحقوا بحركتنا وأن يدعموا بشدة قضاياها وأهدافها .

٦ ـ إن الأعضاء المؤسسين للتحالف الدولى من أجل سلام عربى ـ إسرائيلى يعربون عن تقديرهم وعرفانهم العميق لشعب وحكومة الدانمارك على جهودهم المخلصة ، واستضافتهم الكريمة ، التى كانت ذات فعالية فى تجسيد قضيتنا .

المقال الثامن عشر

وما أدراك ما القدس والمستوطنات ؟!*

منذ اقتحم بنيامين نتنياهو دور القيادة فى إدارة عملية السلام العربى الإسرائيلى تنامى المد فى تأكيد الحلم الصهيونى على أرض الواقع ، وبخاصة فى السعى إلى ترسيخ مقومات الاحتلال الاستيطانى ، وتعرضت الجهود لاستعادة حقوق العرب فى فلسطين والجولان وجنوبى لبنان إلى الجزر ، أو التجميد فى أحسن الحالات . والوقع أن هذا العُتُل المغرور لم يكن إلا استمراراً لسياسة سلفه فى (تحرير أرض الميعاد لشعب الله المختار) ، وإن كان أكثر منهم صلفا وأعلى صوتا ، وأكثر تحديا لكل قرارات الشرعية الدولية والاتفاقيات التى تلت مؤتمر مدريد ، مؤسسة لعملية التسوية على مبدأ الأرض مقابل السلام .

لكن أيديولوجيته الصهيونية لم تختلف كثيرا ولا قليلا عن كل ما احتضنه قادة إسرائيل السابقون من إدعاءات ومبررات وإرهاب فى

---

* مقال نُشر فى أوائل ١٩٩٧ لتوضيح استمرار السياسة الاسرائيلية فى احتلال الأرض وتهويد القدس .

الحرص الشديد على ما انتشلوه بالقوة . وليس قرار بناء الحى اليهودى فى جبل أبو غنيم فى القدس الشرقية العربية ، وصيحاته المتكررة بأن القدس بقسميها هى عاصمة إسرائيل الموحدة الأبدية ، وغير المطروحة للتفاوض ليس فى هذين الحدثين إلا استمرار يؤكد أن شيئا لم يتغير تغيرا يذكر منذ مؤتمر مدريد ؛ وسوف نشير فيما يلى إلى بعض المقولات التى رددها قادة الحركة الصهيونية فى إسرائيل وخارجها ، مما يدعم مطامعهم فى أرض إسرائيل الكبرى (أرتس إسرائيل) .

التمسك بالأرض أولا وأخيرا

من أهم دعائم العقيدة الصهيونية والغزو الإسرائيلى عدم التفريط فى أى جزء من الأرض المحتلة منذ عام ١٩٤٨ . وفى هذا الصدد يقول مناحيم بيجن :

(إن من لا يعترف بحقنا فى الوطن كله (كل الأراضى الفلسطينية إذ ذاك) لا يعترف بحقنا فى أى منه . هذا ما يجب علينا أن نبحث عنه ونحلله بعناية) .

يقول أيضاً : (حدود إسرائيل هى حيث يشعر جنودها بالأمان . وفى عام ١٩٦٩ تقول جولداماثير . إن حدود إسرائيل تنتهى عند الأماكن التى يقيم فيها اليهود فى الأرض المحتلة ، وليس الخطوط الموضحة بالخريطة) .

وها هو الحاخام الأكبر يقرر عام ١٩٧٠ (لقد وعدنا الله بالأرض

وتنبأ جميع الأنبياء بعودتها إلينا ، ولذلك يحظر على أى يهودى إعادة أى جزء من أرض أجدادنا) .

عن القدس

تبدأ الرغبة فى الاستيلاء عليها منذ أيام هرتزل أحد مؤسسى الحركة الصهيونية الكبار، إذ يقول (إذا حصلت يوما على مدينة القدس ، وكنت ما أزل حياً وقادرا على القيام بأى شىء ، فلن أتوانى لحظة عن إزالة كل شىء ليس مقدسا لدى اليهود فيها ، وسوف أدمر كل الآثار التى مرت عليها قرون) . المقصود طبعا الآثار الإسلامية والمسيحية . وتتأكد هذه الأهمية القدس فى مقولة بن جوريون : (لا معنى لفلسطين بدون القدس ، ولا معنى للقدس بدون الهيكل) .

وبعد أسبوع من حرب ٦٧ يخطب بيجن قائلا : (لابد من إحضار اليهود إلى القدس الشرقية مهما كان الثمن ، لابد من توطين ١٠,٠٠٠ من اليهود خلال فترة قصيرة ، ولو أسكناهم فى أكواخ ، فلا ننتظر بناء أحياء جديدة لهم ، فأهم شىء هو أن يصبح لليهود وجود هناك) .

محاولات الاعتداء والتدمير

وتجىء هذه المعتقدات السياسية وتبريراتها الدينية لعديد من المحاولات للهجوم على المسجد الأقصى ، وتدنيسه وانتهاك حرماته فى أحداث كثيرة وبصور متعددة لا تحصى. ولعل أفظع تلك الاعتداءات ما حدث صبيحة الخميس ٢١ / ٨ / ٦٩ من جريمة حريق المسجد

الأقصى ، التى أحدثت أضرارا جسيمة بالأبواب والأسقف والمنابر والسجاد والزخارف ،وغيرها من التحف الأثرية . وإلى جانب هذه الجريمة التى قام بها الأسترالى مايكل روهان جاءت بعدها محاولة الأمريكى ألن جولدمان، ومحاولة ١٩٨٤ ، ثم أحداث إطلاق الرصاص على المصلين سواء فى المسجد الأقصى، أو فى الحرم الإبراهيمى ، مما تختزنه الذاكرة مضيفا إلى جروح العربى والمسلم ، بل وكافة بنى البشر مما يمكن أن يحدثه الإرهاب الصهيونى .

لقد وجدت هذه الأعمال الوحشية الفاشية واستنكار العالم والأمم المتحدة لها تبريرات من الأيديولوجية الصهيونية التى رددها زعماؤها السياسيون والدينيون . وفى هذا الصدد يقول إسحق شامير رئيس الوزارة الإسرائيلية الأسبق (فلنلتفت إلى معتقداتنا نحن ، حيث لا الاخلاق ولا التقاليد اليهودية تنبذان الإرهاب بوصفه وسيلة قتالية فى مجرى الصراع . لذا فنحن بعيدون كل البعد عن تأنيب الضمير إزاء استخدامنا وسائل الإرهاب . وفى التوراة جاء : امحقوهم عن آخرهم ، أبيدوا حرثهم ونسلهم) . إن إرهابنا يلعب دوراً كبيرا فى معركتنا هذه ، إنه صوت عال بحيث يسمعه العالم بأسره ، وكذلك أشقاؤنا التعساء خارج هذه البلاد) .

ولإسحق رابين وزير الدفاع الأسبق ومنظر فكرة تجويع الفلسطينيين وتكسير عظامهم نفس المنطق ، إذ يقول (إنه يمكن وضع القانون جانبا من خلال ما يفعله اليهود) .

والواقع أن تجاهل أى قانون دولى أو أخلاقى مسألة مشروعة ، طالما أنها تحقق هدفا أو مكسبا صهيونيا . وفى مقولة الصحفى اليهودى دورون روزنبلوم ما يدل على إمكانية تبرير أى عمل إرهابى ، حتى مع استنكاره المشروط بمنطق (تفهم الحوافز) . وفى صدد محاولة نسف المسجد الأقصى عام ١٩٨٤ يشير هذا الصحفى إلى (إن الواقع الإسرائيلى يسمح ـ مع مرور الزمن ـ بنقل أبشع الأفكار ، واعتبارها أفكاراً معقولة . إن فكرة جنونية ما ، لدى يمينى متطرف ، سرعان ما تتحول من كونها مجرمة إلى جنونية ، ومن جنوينة إلى غريبة ، ومن غريبة إلى خاطئة ، ومن خاطئة إلى ممتازة . ومن فكرة ممتازة إلى الواقع . . إن المسألة مسالة وقت . . إن كل فكرة تومض فى العقل شريطة أن تكون متعصبة قوميا ويمينيا ، لا تصبح أمرا واقعا فحسب ، بل تقبل رسميا كإجماع قومى) . ويسوق لمثل هذه الأفكار الجنونية الغربية حرب لبنان التى كانت مستبعدة من كل تفكير قبل سنتين من وقوعها ، والتقى فيها العمل (بيريس / رابين) مع الليكود وشامير .

ونشير نحن إلى انتخاب نتنياهو ذاته فى هذا السياق

تحدى الشرعية الدولية

ولعله من الضرورى هنا أن نشير ـ فى ضوء ما سبق ـ كيف تحدت إسرائيل كل قرارات مجلس الأمن والجمعية العمومية للأمم المتحدة فى شأن عدم مشروعية بناء المستوطنات ، أو فى بطلان القانون الأساسى الذى أقره الكنيست من اعتبار القدس عاصمة إسرائيل الموحدة

والأبدية ، وما تتخذه من إجراءات لتهويد القدس . ولم تقتصر الاستهانة بالشرعية الدولية على إسرائيل فى الداخل ، بل إن أنصارها فى أمريكا يدافعون عن مواقفها ، إذ يقول أحد الكتاب الأمريكيين هوارد ساشير إن الأمم المتحدة مجلس تتصايح فيه دول العالم الثالث العدوانية ، والتى تتألف من غالبية أفريقية أسيوية شيوعية من الأعضاء) .

وقد أصدرت الأمم المتحدة مجموعة من القرارات فى إدانة المستوطنات الجديدة فى الأراضى المحتلة منذ عام ١٩٦٧ ، بما فى ذلك القدس . ولعل أكثر تلك القرارت مدعاة للالتفات قرار مجلس الأمن رقم ٤٦٥ بتاريخ أول مارس ١٩٨٠ والذى دعا فيه حتى إلى إزالة المستوطنات القديمة . ومما تجدر ملاحظته هنا موافقة الولايات المتحدة الأمريكية على هذا ، فى حين أنها دأبت على عدم الموافقة على قرارات سابقة ولاحقة تدين عدم مشروعية إقامة المستوطنات ومخالفتها لأحكام القانون الدولى واتفاقيات جنيف .

كذلك نشير إلى معارضة مجموعة الدول الأوروبية لسياسة الاستيطان فى إعلان البندقية الصادر فى يونيه ١٩٨٠ ، حيث تقرر بتلك المجموعة بأنها (مقتنعة تماما بأن المستوطنات الإسرائيلية تشكل عائقا خطيرا أمام عملية السلام فى الشرق الأوسط وتعتبر الدول التسع هذه المستوطنات ، وكذلك التعديل فى التركيب السكانى والممتلكات فى الأراضى المحتلة ، إجراء غير شرعى بمقتضى القانون الدولى) .

ورغم ذلك كله يظل نتنياهو يردد مقولة موشى ديان (إن المستوطنات

سوف تبقى إلى الأبد ، وسوف تضم الحدود المقبلة هذه المستوطنات كجزء من أرض إسرائيل) وبذلك تصبح كل الأراضى العربية المحتلة فى فلسطين (يهودا والسامرة) أراضى إسرائيلية (محررة) . وهل اختلف نتنياهو عن شمعون بيريز حين يقول (ليس ثمة جدل فى اسرائيل بشأن حقوقنا التاريخية فى أرض اسرائيل... إن الماضى ثابت ومستقر كما أن التوراة هى الوثيقة الحاسمة فى تحديد مصير أرضنا) . فهل يظل الوهم بأن ثمة فرقاً بين حزب العمل والليكود بشأن موضوع المستوطنات ، بل والقدس كما سبقت الاشارة إلى ذلك . وفى كل يوم رغم الاتفاقيات ، تتجسد على أرض الواقع أحلام الصهيونية التى ظلت تزحف زهاء نصف قرن على الأرض العربية ، وما زلنا نصدر بيانات الشجب والإدانة وتعويق مسيرة السلام .

أمريكا الشريك المنحاز

لقد أثبتت قضية الصراع العربى الإسرائيلى منذ قيام دولة واسرائيل بانحيازها الكامل إلى إسرائيل فى كل ممارساتها من احتلال الأرض واضطهاد الشعب والشواهد كثيرة لا تحصى ، اذكر فحسب بما حدث خلال شهر مارس ١٩٦٧ حين بدأت جرافات نتنياهو تمهد لبناء مستوطنة جديدة على جبل ابو غنيم رغم كل المواثيق والاتفاقيات . خلال هذا الشهر استعملت الولايات المتحدة الأمريكية وحدها حق الفيتو (النقض) مرتين فى مجلس الأمن ضد إدانة بناء مستعمرات جديدة، متحدية بذلك بقية أعضاء المجلس الأربعة عشر . وكذلك

كان صوتها فى الجمعية العمومية فى معارضة ذلك القرار مع اسرائيل وكوستاريكا .

وقد اطلعت على إحصائية لعدد المرات التى استخدمت فيها حق الفيتو ضد القضية الفلسطينية والاحتلال الجولان وجنوب لبنان ،فى الفترة من ١٩٧٠ حتى عام ١٩٨٦ بلغ جملة حق النقض فى مجلس الأمن الذى مارسته الولايات المتحدة (٤٥ مرة) فى جميع القضايا المعروضة على ذلك المجلس ، وكان نصيب قضايا الصراع الغربى الاسرائيلى (٢٠مرة). وبينما شاركتها بريطانيا وفرنسا فى بعض القضايا الأخرى ، انفردت هى وحدها باستعمال حق النتقض فى القضايا العربية ، بما فى ذلك الاعتداءات على المسجد الأقصى وتدنيس الحرم الشريف بالقدس وضم مرتفعات الجولان وغزو لبنان ، واعتراض الطائرات الحربية الاسرائيلية للطائرة المدنية الليبية فتسقطها وتكون المذيعة القديرة سولى حجازى من بين الضحايا .

ذلك هو موقف الولايات المتحدة كما يعسكه استخدامها لحق النقض إزاء الاحتلال الإسرائيلى وممارساته الفاشية ، إنها تكيل بكليلين ، وتغمص عينها .

حين لا تدين الإرهاب الاسرائيلى لأنه دفاع عن النفس ، وتفتح عينها وفمها حين يقاوم العرب الاحتلال والطغيان الإسرائيلى . وليس بمستغرب على الاطلاق حين يعلن كاسبر واينبرجر وزير الدفاع الأسبق

أن اسرائيل بالنسبة لامريكا (حاملة الطائرات التى لا تغرق) ترسل الطائرات التى نزودها بها امريكا لضرب المفاعل الذرى فى العراق وللاعتداء على مواقع القيادات الفلسطنية فى تونس ، وتهدم القرى وتروع السكان فى جنوب لبنان .

أما بعد

تلك بعض الشواهد من أفواه قيادات الصهيونية وأعوانها ، حاولنا جمع بعضها تنشيطا لذاكرة الأمة ، توضيحا لما خطر لبعضنا من أن ثمة فرقا جوهريا فى الآراء السياسية نحو القضية الفلسطينية بين الليكود والعمل .

وما مواقف نتنياهو منذ مجيئه إلى السلطة الا تعبيرا صارخا ومعجرفا عن تلك الأيديولوجية الراسخة فى الثقافة الصهيونية .كذلك نتساءل ماذا جرى لمرجعيات عملية السلام من قرارات الأمم المتحدة والمجتمع الدولى واتفاقيات أو سلو والقاهرة ، وما تلاها من بروتوكولات هل ذهبت كلها إدراج الرياح ؟ كما نتساءل عندما يكون قاضيك منحازا فإلى من تشكو ، وممن تطلب الإنصاف ؟ إن الخروج من هذا المأزق ونفقه المعتم يتجسد فى قول الشاعر كما لو أنه موجه إلى الأمة العربية كلها .

ما حـك جلـدك مثل ظفـرك فتـول أنـت جميـع أمـرك

والسلام العربى لا يصنعه إلا العرب . . .

المقال التاسع عشر

مقتطفات من المناظرة

بين باكوف هرتزوج سفير إسرائيل فى كندا ورئيس دولة إسرائيل الأسبق .

والأستاذ أرنولد توينبى المؤرخ البريطانى المشهور

حول العلاقات العربية الإسرائيلية ،

وسياسات إسرائيل بالنسبة للاجئين العرب

التى دارت فى مونتريال / كندا بتاريخ ٣١ يناير ١٩٦١

حول وعد بلفور والوطن القومى لليهود الفقرة الأولى تصريح بلفور تنص على أن بريطانيا تتعهد بتأييد أو اقامة ، أو شىء من هذا القبيل ، وطن قومى لليهود فى فلسطين . أما الفقرة الثانية فتنص على أن لا يتخذ أى إجراء من شأنه المساس بمصالح سكان البلد الذين كان العرب يؤلفون منه اذ ذاك ـ أى وقت صدور التصريح فى عام ١٩١٧ ، ٩٠ فى المائة ـ وأنا أوجه اللوم إلى تصريح بلفور ، لأن كلمة « وطن » قد أتت

على نحو غامض . ولكن الأمر أوضح غاية الوضوح كما أعلم بصورة مباشرة من الاطلاع على الوثائق التى صدرت ذلك الحين باعتبارى موظفا مؤقتا فى وزارة الخارجية البريطانية . لقد أوضح غاية الوضوح ، وبصورة قبلها دكتور وايزمان اذ ذاك ، أن «وطن» لا تعنى « دولة » ذاك لأنه لو كان هذا كذلك - أى كان لفظ وطن يعنى «دولة» - لكانت الفقرة الأولى من تصريح بلفور تناقض الفقرة الثانية منه . هذه الفقرة الثانية التزام لا يقل إيجابا وحجية بالنسبة للحكومة البريطانية التى أصدرت التصريح وهو يفرض عليه أن لا يقع أى حيف بحقوق ومصالح السكان الحاليين فى البلاد . وأعتقد - كما أظن أن كل إنسان يشاركنى هذا الاعتقاد - أن لليهود حق المطالبة بوطن قومى ولكنى أعتقد كذلك أن الوطن القومى لا يمكن أن يصبح دولة دون المساس بحقوق السكان الأصليين للبلاد وهو مساس شاهدنا أثره فى التسعمائة ألف لاجىء فلسطينى . ولعل الوطن القومى كان يمكن أن يأخذ صورة دولة فلسطينية تضم اليهود والعرب على قدم المساواة . وقد يقال أن هذه امكانية نظرية وانه فى اللحظة التى فتحت فيها أبواب البلاد للهجرة اليهودية بشروط لم تكن صادرة عن سكان البلاد أنفسهم . ولكن صادرة عن الحكومة البريطانية ، فقد كان لابد للأمور أن تخرج عن الطريق المرسوم لها .

ولا شك فى أن جميع الأنظمة والشعوب التى عاشت فى فلسطين منذ ١٣٥ بعد الميلاد قد سمحت لليهود بالعيش فى فلسطين واعترفت لهم بحقوقهم . وقد كان يعيش فى القدس دائما جماعة من أتقياء اليهود يدرسون الشريعة . وكان النظام التركى يمسح بهذا . وأشك فى أن

الصليبيين كانا يسمحون به . ولعل الدولة الوحيدة التى أنكرت على اليهود هذا الحق هى دولة الصليبيين .

وفكرة الوطن القومى هى توسيع لهذا الوضع . لقيام ٥٠,٠٠٠ يهودى بدراسة الشريعة فى القدس و ١٢,٠٠٠ يهودى يعملون فى المزارع كما كان الحال سنة ١٩١٧ . كانت هذه هى الصبغة القديمة للوطن القومى اليهودى ، وقد استهدفت الحركة الصهيونية التى كان يتزعمها دكتور وايزمان والحكومة البريطانية التى كان يرأسها مستر بلفور توسيع قاعدة هذا الوطن اليهودى القومى واسباغ مظهر حديث عليه وذلك بالسمح بهجرة أوسع ، وأن يخول اليهود الحق وتيسر لهم السبل للاستقرار، فى أعداد محدودة ، فى فلسطين ـ أعداد محدودة بالنظر لالتزام بريطانيا بعدم الإضرار بمصالح سكان فلسطين إذ ذاك .

إنى أوجه اللوم لوعد بلفور فى هذا المعنى ، وأعتقد أن محامياً يستطيع أن يثبت تناقض الالتزامين اللذين يتضمنهما . و على كل حال فقد يبدو هذا حكمة متأخرة . ولعلنا لا نستطيع أن نوجه كثيرا من اللوم إلى الحكومة البريطانية ذاك الحين لأنها لم تتوقع اذ ذاك أن المجتمعين ـ العرب واليهود ـ سيفسران التصريح بصورة متناقضة . ولقد وضعت فلسطين فى مرتبة «أ» بقصد إعدادها للحكم الذاتى والاستقلال التام . وقد فسر العرب باعتبارهم يكونون ٩٠ فى المائة من سكان البلاد بأن استقلال فلسطين معناه أن تصبح دولة عربية .

حق اليهود فى فلسطين

بروفسور توينبى

لقد أثار السفير نقطة تتعلق بحق اليهود فى فلسطين ، ان العجيب فى أمر اليهود هو أنهم لم تنطمس فى ذاكرتهم قط ذكرى موطنهم . ولقد كانوا فى هذا أمرا شاذا بين الشعوب التى انتزعت من أرضها ونقلت إلى بلادهم على يد البابليين فى القرنين الثامن والسادس قبل الميلاد . وبينما فقد يهود دولة اسرائيل القديمة وجودهم وكيانهم بعد السبى فان دولة يهوذا ظلت طوال سنين السبى وهى محتفظة بكيانها المستقل . وكما نعم جميعا اندثرت الأسباط العشرة . ودولة اسرائيل القديمة تمثل اليوم ببضع مئات من السامريين بعضهم فى الأردن وبعضهم الآخر فى دولة اسرائيل الحالية . بينما الشعوب الأخرى التى كانت معاصرة لدولة يهوذا اسرائيل القديمة اندثرت تماما فى الوقت الذى ظل فيه اليهود محافظين على وجودهم المتميز. وقد تم هذا عن طريق تعلقهم بذكرى فلسطين .

لقد قلت منذ لحظات أنى أعتقد أن يهود اليوم والغد سيكونون اللاجئين الفلسطينيين العرب ذاك أنهم يعانون نفس الحالة الذهنية التى عاناها اليهود بعد سبى بنوخذ نصر لهم مباشرة . إن لفلسطين سحراً خاصاً يستهوى عقول الناس ، اذا عاشا فيها .

ولكن الآن ماذا عن هذا المطلب اليهودى ؟ هناك شىء فى القانون ، بل أعتقد فى كل أشكال القانون ، يقول بسقوط الحق نتيجة التقادم ، فاذا أخذنا مثلا عام ١٣٥ الميلادى باعتباره التاريخ الذى قام فيه الرومان

بطرد الجانب الأكبر من سكان فلسطين اليهود ـ فاذا أخذنا هذا التاريخ وقلنا أن سقوط الحق لا ينطبق حتى على هؤلاء الذين غادروا البلاد فى ذلك التاريخ ، ماذا يحدث بالنسبة لمدينة كمونتريال ؟ لقد كان هنود لاالجونكوين يسكنونها منذ ثلاثمائة أو أربعمائة سنة على الأكثر . فهل يقال كذلك بضرورة عودة مونتريال إليهم ؟ وبعودة إنجلترا لأهل ويلز ؟

مستر هرتزوج :

نعم .

بروفسور توينبى :

أحقا ؟ إذن فعليك أن ترحّل خمسين مليونا من الإنجليز وتجعل منهم لاجئين .

لقد فسر بعض اليهود الوطن القومى باعتباره منتصف الطريق نحو الدولة اليهودية ، وأخشى أن أقول أن بعضهم كان يردد « حتى لو أن هذا لم يرده البريطانيون ، فسنستخدمه كذريعة للحصول على دولة يهودية فى النهاية . وهذا أمر بشرى ولا أستطيع أن أكثر من اللوم فى هذا الصدد . وأعتقد شخصيا أن وعد بلفور كان على حق حينما أقام هذه الحدود . وقد تشبهونها برطل اللحم ونقطة الدم فى رواية تاجر البندقية . فما دام التصحيح قد نص على عدم المساس بمصالح السكان غير اليهود البالغ عددهم ٩٠ فى المائة بمعنى هذا أنه لا يمكن قطعا أن يقوم وطن قوعى فى المعنى السياسى بل على أن يقام هذا على الأكثر فى المعنى الثقافى . اعتقد أن هذه هى الشروط التى قبلتها المنظمة الصيونية ذاك الحين والتى

وضعتها الحكومة البريطانية والتى منحت بها اليهود أمرا قريبا إلى نفوسهم . ولقد ضمن التصريح كتابة حقق سكان البلاد إذ ذاك ، وهو أمر كانت تلزم به جميع مقتضيات القانون والأخلاقيات .

حق عودة اللاجئين

بروفسور توينبى :

إذا سمح لى بأن أعالج هذه النقطة الأخيرة . إن مقاطعات كندا تمتد لمساحات أشد سعة من الدول العربية الثمانى ، بل إنها لتمتد من المحيط إلى المحيط . وعلى هذا فيجب ، استنادا إلى حجة السيد السفير ، أن لا ترفض كندا إعادة مونتريال إلى قبائل الجونكوين القديمة التعسة . والقول بأن العرب غير الفلسطينيين قد أحرزوا الاستقلال لا يجب أن ينهض مبدأ لاحالة السكان السابقين لما يسمى اليوم بإسرائيل إلى لاجئين وأغراب عن ديارهم كما هو شأنهم اليوم . وبالنسبة لتصريح بلفور أحب أن أقرر بلا لبس ولا إبهام أنى أعلم أنه كان مفهوما بصورة واضحة أن الوطن القومى لا يراد به الدولة القومية اليهودية . ولقد أبلغت الحكومة البريطانية هذا بصورة واضحة للمنظمة الصهيونية عند صدور التصريح ، وقد قبلت المنظمة التصريح على هذا الأساس . وسلمت عصبة الأمم الانتداب على فلسطين لبريطانيا فى نطاق هذا المفهوم وهذه الشروط .

اعتقد أن هناك نقطتين فيما أدلى به السفير الآن . الأولى عودة اللاجئين إلى ديارهم . والثانية استخدام اللاجئين كسلاح سياسى .

وأعتقد أن هناك تناقضا فى الموقف الإسرائيلى ... فأنتم تطالبون بعودة اليهود إلى فلسطين ، رغم أنهم تركوها منذ عام ١٣٥ ميلادية ولم يكن فى بفلسطين قط كتلة ملحوظة من السكان اليهود . وإنْ كنت أوافق السفير أن قلة من اليهود عاشت بصورة مستمرة فى فلسطين . وهى أقلية قليلة . ومنذ عام ٦٤ قبل الميلاد لم تقم دولة يهودية فى فلسطين . لقد ادعيتم الحق فى العودة ، لا كما نص وعد بلفور فى صورة وطن قومى، ولكن فى الصورة المتطرفة للدولة . ولكنكم تنكرون فى نفس الوقت على العرب الذين أرغموا على مغادرة فلسطين ، الجزء الإسرائيلى فى فلسطين ، عام ١٩٤٨ ، تنكرون عليهم ما يعتبر الحجة الأساسية التى يستند إليها الشعب اليهودى . هذا موقف متناقض ، عليكم أن تتأملوه ... ثم نقطة استخدام اللاجئين كسلاح سياسى ، لقد أتيحت لى فرصة تجاذب أطراف الحديث مع ممثلى الدول العربية خلال السنوات القليلة الماضية ـ وأعتقد أن المنظمة الصهيونية وحكومة اسرائيل تعيشان فى بيت زجاجى بالنسبة لموضوع استخدام اللاجئين كسلاح سياسى . ذلك أنى أرى شبها بليغا بين استخدامهما اللاجئين اليهود كسلاح سياسى ، وما ينسبونه للعرب فى هذا المجال . وقد حدث الكثير ، وخاصة بعد الحرب العالمية الثانية، مما يوضح كيف وجهت الصهيونية اللاجئين اليهود إلى فلسطين ، استغلالا لمحنتهم فى سبيل توطيد السياسة الصهيونية ، بدلا من إقرارهم فى أستراليا أو أمريكا الشمالية ، حيث كان ينتظرهم المأوى والمستقبل .

المقال العشرون

فى قضايا التعليم .. لا تطبيع ولا تعتيم

هذه هى المرة الثالثة التى أكتب حول مواجهة المحاولات الظاهرة والمستترة لاختراق ساحة التعليم من قبل اسرائيل أو الساعين إلى تطبيع التعامل معها . المقال الأول (إلا التعليم يا بيريز)!! جاء صدى لاهتمام رئيس وزراء إسرائيل إذ ذاك بالدخول إلى النشاط التعليمى من خلال التعاون مع مصر فى تزويد المدارس والجامعات بالمعدات التكنولوجية تحديثاً للعملية التعليمية ومن المعلوم أنه كان يرى أن التعليم بعامة ، والجامعى بخاصة ، من أهم جبهات الاختراق لآثاره المضاعفة وتداعياتها الفكرية والثقافية . وأنها لاتقل أهمية عن مشروعه الاقتصادى فى السوق الشرق أوسطية التى احتضرت بعد انكشاف دعاواها الزائفة .

والمقال الثانى بعنوان (إلا التعليم يا كوبنهاجن!!) جاء رد فعل لمحاولة زمرة كوبنهاجن فى شق قنوات للتعاون العلمى بين إحدى كليات

(*) نشر هذا المقال بتاريخ ٢٥ / ٦ / ٩٧ .

التربية فى جامعاتنا وإحدى كليات التربية فى جامعة عبرية . ويبدو أن هناك شعبة خاصة للتعليم فى زمرة كوبنهاجن تتجه فى مساعيها إلى إرساء قواعد مؤسسية ومناخات فكرية لكى تحقق مشروعها فى التطبيع فى بعض المواقع الجامعية .

ويتضح كذلك أنشعبة التعليم هذه ، فى سعيها غير المشكور ، لا يصيبها الكلل أو الإحباط ، فإذا أخفقت فى محاولة ، لفت ودارت محاولة النفاذ من مداخل أخرى . وفى جميع تلك المساعى تكتسى بأقنعة من القضايا والشعارات التى تعجبها الساحة الدولية، كقضايا العولمة والقرية الواحدة ، والتعليم من أجل السلام ، والتعليم من أجل التسامح وعدم التعصب ، وضرورة الحوار مع الآخر ، ولا تمل من التركيز على ضرورة تغيير ذهنية العربى وثقافته فى ضوء تلك المتغيرات ، سواء فى محاضراتها وكتاباتها وتجمعاتها التى تصفها « بالعلمية» وكلما استطاعت إلى ذلك سبيلا . ونحن ندرك أنه إذا كان لتلك القضايا والمقولات وجه حق ، فإنه قد يراد بها باطل فى هذا التوقيت حين تطرح كقضايا مجردة منتزعة من سياقها فى الزمان والمكان ، وبخاصة حين تنتزع من سياق صراعنا الغربى مع إسرائيل والصهيونية العالمية .

وفى ختام هذه الأسطر أتساءل : هل اطلعت شعبة التعليم فى زمرة كوبنهاجن على سياسة التعليم وموقفها إزاء ذلك الصراع ، والتى أعلنها وزير التعليم الدكتور حسين كامل بهاء الدين فى أكثر من حوار صحفى خلال الأسابيع القليلة الماضية وفحوى تصريح سيادته يقرر بصورة

حاسمة بأنه لا تطبيع فى التعامل مع إسرائيل ما دامت متمسكة باحتلالها للأراضى العربية ، وأنه ليس وارداً إقامة أية علاقات تعليمية معها حتى يتحقق السلام الشامل والعادل ، وتعود الحقوق العربية لأصحابها .

وفى ضوء ذلك ، هل آن لشعبة التعليم أو غيرها من شعب زمرة كوبنهاجن أن تراجع نفسها ولا ترهقها عنتاً بمحاولاتها لاختراق جبهة التربية والتعليم ؟! والتربويون فى جامعاتنا إذ يكررون إشادتهم ومساندتهم لهذا الموقف فى سياسة التعليم ، يؤكدون وقوفهم ضد محاولات التطبيع ، جبهة واعية متماسكة ، مرددين أنه فى قضايا التعليم، لاتطبيع ولاتعتيم .


مكتبة الدار العربية للكتاب